بوشامة هشام

هدية من السماء

المثقف
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى 1440 هـ - 2018 م
ردمك 8- 230- 79 – 9947- 978 :(ISBN)
التوزيع الدولي للكتاب/ مصر، لبنان، الأردن، السودان، العراق

اسم العمل: هدية من السماء
اسم المؤلف: بوشامة هشام
تصميم الغلاف: لغويل سيف الدين
المدير العام / سميرة منصوري
اخراج: حمودة كوثر

الناشر / دار المثقف الجزائر / دار ببلومانيا مصر للنشر والتوزيع
صفحة الدار على موقع فيسبوك:
/https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكتروني: www.elmmothakef.com
هاتف / فاكس 70 65 85 033 / 86 73 49 0675

المثقف للنشر والتوزيع

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر

الإهداء

إلى والدي الكريمين.

الحمد لله الذي يعطينا القوة عندما يخذلنا الجميع

الفصل الأول

عاد بعد غروب الشمس بقليل... مع تلك الحمرة الجميلة في سماء أواخر الشتاء التي رسمت عليها خيوط رفيعة من الغيوم... يمشي متثاقل الخطوات ويجر خلفه تعب اليوم كله، يحمل في يده غصن شجرة نام الظهيرة تحت ظلها... مطأطئ الرأس وينظر بتركيز عال إلى الحفر التي تركتها أرجل الثلاث بقرات التي تمشي أمامه يحاول عمدا أن يحافظ على نفس نسق المشي معها لتبقى المسافة بينه وبينها هي نفسها دائما فهو لا يريد تجاوزها أو حتى الاقتراب منها فقد سئم منها...وسئمت منه.

دخل المدينة والظلام قد بدأ في إظهار ملامحه والبرد قد سل سيفه وكان أول شخص يلتقيه دائما العجوز «ماثيو»، حياه فقط برفع حاجبيه فهو لا يريد أن يدخل معه في ذلك الحوار الروتيني الممل وأخذ بالسير في شارع ضيق مضاء بضوء برتقالي خافت وخال من سكان القرية فقد لجأ الجميع إلى بيوتهم وعم صمت رهيب لدرجة أن الصوت الوحيد المسموع هو صوت أقدام البقرات على الحجارة التي عبدت بها الطريق... حتى وصل إلى إسطبل عمه الصغير، أدخل البقرات الثلاث ودخل وراءهن وأغلق عليه الباب بمسند خشبي يستطيع أي شخص أن يزيحه من الخارج بسهولة... يستعمله فقط حتى لا تخرج البقرات أثناء نومه، بعدها تحسس بيديه ملابسه التي علقها لتجف على سلك قام بربطه من طرف الإسطبل إلى طرفه الآخر ثم ذهب إلى أحد أركانه أين يوجد كوخه المبني بالطين... سماه كوخا لأنه لم يجد في قاموس عقله الكلمة التي يستطيع أن يعبر بها عن معنى الضيق الشديد، به سرير أقصر منه بقدمين وفي أحد أركانه طاولة مربعة صغيرة ذات ثلاث أرجل طويلة يوجد فوقها فنجان بداخله شمعة بالكاد تضيء نفسها وقارورة ماء... أما تحت الطاولة فتوجد فردة حذاء جلدي قديم

شرب قليلا من ذلك الماء الذي لا يتذكر كم مضى على وجوده ثم أدخل يده المتجمدة من البرد في فردة الحذاء وأخرج منها قطعة خبز وحبة تفاح ملفوفتين بخرقة بالية اعتادت «آنيا» أن تضعهما له في ذلك المكان قبل عودته من الرعي... أكل قضمتين من الخبز وقضمة تفاح ثم ترك ما تبقى لفطور

صباح الغد... جلس على السرير وأسند ظهره إلى وسادة وضعها بينه وبين الجدار وبدأ في محاورة نفسه ككل ليلة... لقد كان ذلك الصوت الذي يرد عليه من داخل عقله هو الصوت الوحيد الذي يستطيع أن يخاطبه بحرية ودون تكلف وكان معظم الحوار يدور حول ثلاث أسئلة فقط، لديه إجابة على السؤال الأول وليس متأكدا من إجابة السؤال الثاني أما أصعبها فالسؤال الثالث... ذاك الذي لا يملك له جوابا.

- ماذا لو كان والدي حيا؟

- لكنت أعيش الآن حياة أفضل بكثير... الأب هو السند... هو العمود الفقري لكل بيت لهذا يسمونه «رب» الأسرة... هو عالم متكامل لوحده... دنيا... والدليل على ذلك أن كل الذين لديهم آباء أحياء يعيشون حياة أفضل مني بكثير أو على الأقل لا يتناولون في العشاء قضمة تفاح وخبزا عفنا ممزوجين برائحة حذاء جلدي نتن... إذا كنت يتيم الأب فحتى ولو كانت أمامك حقول على مد البصر من التفاح والقمح فلن تجد لها طعما في فمك.

- كيف يبدو شكل أمي؟

- لست متأكدا من شكلها الحقيقي لأنها ماتت عندما كان عمري سبع سنوات... كان بإمكانها أن تعيش أكثر لكن قطار الحياة طلب منها تذكرة واحدة فأعطتني تلك التذكرة لأحيا أما هي فقد فضلت البقاء هناك... ولقد كان نصيبي من ميراثها عينين زرقاوين وشعر ذهبي أفتخر بجماله... تبدو صورتها في عقلي مثل الشبح... أحيانا، أعتقد أنني أتذكرها جيدا ولكن عندما أركز جيدا للوصول إلى صورتها النهائية وتفاصيل وجهها ينقشع كل شيء وتختفي الصورة تماما.

- متى ينتهي كل هذا الألم والجوع؟

- لا أعلم الجواب.

في وسط هذا التفكير الذي يشعره بالنعاس، سمع صوت طقطقة باب الإسطبل يفتح من الخارج... إنه «كارتر» بلا شك فهو الوحيد الذي يأتي في هذا الوقت، جاء ليتفقد بقراته ثم يتظاهر أنه جاء ليتفقد ابن أخيه.

- كيف حالك اليوم يا «إدوارد»
- أنا بخير يا عمي.
- هل أخرجت البقرات اليوم؟
- نعم، البقرتان البنيتان أكلتا جيدا أما تلك «المرقطة» فلا تبدو بخير
- «المرقطة» لا تبدو بخير ؟ ... نعم ... لقد كبرت في السن كما أنها تعبت كثيرا هذا الموسم، لاحقا سأبحث لها عن جزار يشتريها مني، حسنا تصبح على خير.
- مع السلامة.

طبعا لا يمكن لعمه أن يدعوه للمبيت أو حتى للعشاء في بيته لأن زوجته «ويندي» لن تقبل بذلك أبدا فبعد ميلاد ابنتهما «آنيا» بأعجوبة والتي تمنوها لو كانت ولدا أخبرهما الطبيب أنهما لن يستطيعا الإنجاب مجددا مما جعل «ويندي» تغار من الأولاد كثيرا بل وتكره وجودهم أمامها... قد يبدو هذا سببا مقنعا نوعا ما ولكن في الحقيقة ليس هذا هو السبب الرئيسي بل فقط ما تتظاهر به حتى لا تبدو أمام الجميع بمظهر الشيطان... السبب الرئيسي أنها تكره «إدوارد» بالذات ولأسباب لا يعلمها أحد غيرها، كما لا يمكن لعمه كارتر» أن يطرده من البيت خشية على سمعته من كلام الناس ولومهم له وليس شفقة عليه، فلو وجد سببا لطرده لما أبقاه.

استلقى «إدوارد» على سريره وألقى على نفسه غطاءً باليا وثنى ركبتيه حتى يتساوى طوله مع طول السرير ونام .

نهض «إدوارد» قبل طلوع الشمس... غسل وجهه في المكان المخصص لشرب الأبقار... طبعا لا يوجد أسوء من ذلك... أن يمضي ثلثي اليوم مع ثلاث بقرات ثم ينام الثلث الأخير بجوارهن في إسطبل نتن بفضلاتهن وينهض في الصباح ليغسل وجهه بالماء الذي يشربن منه.

لقد اعتاد «إدوارد» على كل ذلك، كما اعتاد على العجوز «ماثيو» الذي يلتقي به عند مخرج المدينة كل صباح ينتظر قدوم ابنته التي ماتت مباشرة بعد ولادتها منذ أربع وعشرين سنة.

- لماذا لا تهاجر يا «إدوارد» من هذه الأرض اللعينة؟

- إلى أين تريدني أن أذهب يا عم «ماثيو»؟
- هاجر كما فعل والدك، لكن عد يوما ما إلى أمك لأنها ستشتاق إليك كثيرا.
- حسنا عماه، سأسافر في أقرب فرصة تتاح لي، أراك في المساء.

طبعا لن يسافر «إدوارد» لأي مكان هو فقط يستعمل هذا الجواب لينهي حديثه مع العم «ماثيو» الذي أصيب بعد وفاة ابنته بصدمة نفسية جعلته يتذكر الحوادث وينساها في نفس الوقت فهو يعلم أن «إدوارد» يتيم الأبوين لكنه نسي أنهما ماتا.

اتجه إدوارد بعدها إلى هضبة اعتاد الذهاب إليها كل يوم تبعد حوالي ميلين عن قريته مع بقراته الثلاث البنيتان في المقدمة وخلفهما «المرقطة» التي كان لعابها يسيل كثيرا ثم في الأخير «إدوارد» الذي أدخل يديه تحت قميصه من البرد.

الحياة في مدينة «فوانيمور» لم تكن سهلة أبدا فالفقر كان سيد الموقف... كان الخباز أغنى من بائع الذهب ولم يكن حال أكثرية الشباب أفضل من حال «إدوارد»... عندما يبلغ الشاب مرحلة الرشد يصير مجبرا على الاختيار بين ثلاثة أمور فقط... إما أن يهاجر إلى مدينة أخرى من مدن الجنوب الغنية البعيدة ليعمل هناك وثم يرسل المال الذي جناه لعائلته ليعود إليهم مرة كل عام أو يبقى في المدينة لرعي أغنام وأبقار التجار الذين طبعا لا يملكون الوقت لفعل هذا ولا يتركون أولادهم يفعلونه... أو يلتحق بالجيش في الحدود الباردة وقد يعود مبتور الأقدام أو الأيدي من البرد والجليد أو ربما لا يعود منها أبدا. كثير من العائلات الفقيرة كانت تتشارك نفس المسكن مع حيواناتها، أما الطابع العمراني للقرية فقد كان معظمه من الخشب والطين ويتمركزون غالبا عند حافة المدينة فهم يحيطون بها، أما وسط المدينة فهو للعائلات المتوسطة أو الغنية ... البيوت الخشبية ذات الطابقين فلم تكن تتجاوز الأربعون بيتا... فقط مركز الشرطة والبريد وبيت العمدة والخباز من كانت بيوتهم مبنية بالحجارة والقرميد.

عاد «إدوارد» ودخل الإسطبل ففوجئ بضوء خافت يصدر من كوخه... لو نسي الشمعة مشتعلة لانطفأت منذ مدة طويلة فمن عساه يكون بالداخل؟ أغلق الباب واتجه إلى الكوخ ودخل فوجدها جالسة على سريره فقال لها مبتسما

- «آنيا» ماذا تفعلين هنا؟

- اشتقت لك يا «إدوارد» فأردت أن أراك قبل أن أنام

- لقد اشتقت لك أيضا... مضت مدة على آخر لقاء بيننا... ولكن هل تعلم أمك أنك هنا؟ فأنا لا أريدها أن تغضب منك

- لا تقلق بشأنها يا «إدوارد» ولتغضب إن أرادت... فلقد سئمت منها ومن تصرفاتها حتى صرت أخجل من كونها أمي... لقد أحضرت لك العشاء وسآخذ ملابسك المتسخة لأغسلها وغدا عندما أعود من المعهد سآتي لأنظف هذا المكان فأنت لا تملك الوقت لفعل هذا كما أنني سأغير هذا السرير وهذا الفراش

- «آنيا» أنا حقا لا أريد أن أتسبب لك بمشاكل مع والديك... لا تقلقِ بشأني فلقد اعتدت كثيرا على الأمر وسأنظف المكان غدا

وقفت «آنيا» ووضعت يدها على كتفه وقالت بثقة

- «إدوارد»... أخبرتك بأنني سآتي غدا، وسأنظف هذا الكوخ وسأغير هذا السرير والفراش وسأحضر لك العشاء كل يوم... وليغضب من أراد أن يغضب... أعلم أنني تأخرت كثيرا لفعل هذا ولكن أعدك بأن كل شيء سيتغير للأحسن

غادرت «آنيا»، أما «إدوارد» فقد بقي واقفا رافعا حاجبيه مندهشا من الذي يحدث أمامه... ما الذي جعلها تنقلب هكذا على والدتها فجأة وهي التي كانت تخاف منها كثيرا؟... ضم شفتيه ورفع كتفيه مستغربا وهو يتأمل ذلك الطبق الشهي الذي أحضرته له وسلة الفواكه الموضوعة بجانبه

دخلت «آنيا» إلى البيت ووجدت والدتها في انتظارها

- لقد كبرت يا «آنيا» وصرت تعصين أوامر والدتك

- لم أفعل شيئا سيئا يا أمي بل ما كان يجب علي فعله منذ مدة طويلة... قدمت له العشاء فقط وسأفعل هذا كل يوم وسأرتب سريره وأغسل ملابسه أيضا

- أعتقد أنك تبالغين كثيرا... من يسمعك تتكلمين هكذا سيظن أننا لا نعتني به

- لا يظنون ذلك يا أمي بل متأكدين من ذلك، أساتذتي وزميلاتي في المعهد وكل الذين ألتقي بهم يسألونني عنه ولماذا لا نعتني به... أعتقد أنهم على حق... يجب أن يتلقى معاملة أفضل من هذه بكثير

- لكننا نعطيه مكانا يبيت فيه ومرتبا كل نهاية أسبوع يستطيع أن يشتري به أكله وحاجياته، فلماذا نقدم له المزيد؟

- سنقدم له المزيد يا أمي

- سأخبر والدك عندما يعود يا «آنيا» فهو الوحيد القادر على قطع هذا اللسان الذي ازداد طوله كثيرا هذه الأيام

عاد «كارتر» من تجارته ودخل مدينة «فوانيمور» فوق حصان يجر عربة فيها بعض لفائف القماش الكثيرة الألوان... وطبعا من شروط الدخول للقرية الالتقاء بالعجوز «ماثيو» ألقى عليه التحية وخاطبه بسخرية كما يفعل دائما.

- هل عادت ابنتك يا «ماثيو»؟

- ليس بعد، ولكنها قادمة بلا شك فقد أخبرتني بذلك عندما زرت قبرها هذا الصباح.

- بلغها سلامي.

ثم اتجه إلى إسطبله ليتفقد بقراته الثلاث و»إدوارد» طبعا ثم بعدها إلى منزله الذي يبعد عن الإسطبل بضعة أمتار فقط.

دخل «كارتر» إلى بيته وأول من استقبلته كانت ابنته «آنيا»

- كيف كان يومك يا أبي؟ تبدو متعبا.

- لقد تعبت اليوم كثيرا يا بنيتي فهؤلاء الريفيون يريدون أخذ كل شيء بنصف ثمنه... عليهم أولا أن يفرقوا بين ملابس الشتاء وملابس الصيف أو التخلص من رائحة العرق النتنة الملتصقة بأجسامهم... عندما أبيع القماش في المدن الكبيرة لا أجد صعوبة في عملي فالناس الذين أتعامل معهم مثقفون جدا ويعلمون جيدا إن القماش الذي أبيعه ذو جودة ونوعية رفيعة ويأخذونه بالسعر الذي أطلبه ويتركون لي الباقي في الكثير من الأحيان أما هؤلاء الحفاة....

(قاطعته «آنيا» بصوت مرتفع)

- أبي... ألا ترى بأنك تبيع القماش بسعر غال جدا، فأنت تبيعه بثلاث أضعاف سعره ثم إن سكان المدن الذين يعمل أغلبيتهم في المصانع ليسوا أبدا بنفس المستوى المادي مع سكان القرى الصغيرة الذين دخلهم الوحيد من محصول أراضيهم الموسمي أو من حليب ماعزهم الذي تشترونه منهم بثمن زهيد...

في هذه الأثناء دخلت «ويندي» حاملة وعاءً فيه ماء ساخن ومنشفة علقتها على كتفها، وضعت الوعاء أمام رجلي زوجها والمنشفة على ركبته ثم قامت وعيناها ملتصقتان في عيني «آنيا» وخاطبتها بنبرة حادة

- اصعدي إلى غرفتك واتركي والدك يستريح قليلا فقد كان يومه شاقا، سأناديك عندما يحضر العشاء.

صعدت «آنيا» تجري إلى غرفتها أما والدها «كارتر» فبقي مستغربا من طريقة كلامها معه... أطلق زفيرا طويلا ثم قال لزوجته

- لقد كبرت الفتاة يا «ويندي» وأثر فيها اختلاطها مع الشبان في المعهد

- أرى ذلك... لقد تغيرت طريقة كلامها معي أنا أيضا...

- لا تقلقِ... سأكلمها بعد العشاء

- لا أعتقد أن الحل في أن تكلمها... لقد كبرت الفتاة ويجب أن نزوجها يا «كارتر» ولن أجد زوجا أفضل من «هاري»... لقد كلمتني والدته عنها كثيرا وأخبرتني في العديد من المرات بأنها لن تجد لابنها فتاة أفضل من «آنيا»

- مازال الوقت مبكرا على هذا الكلام يا «ويندي»... سأكلمها بهدوء لأعرف ما بها وفي ماذا تفكر

بعد عشاء صامت، صعدت «آنيا» مجددا إلى غرفتها وبعدها بقليل تبعها والدها الذي دخل بعد أن استأذن منها الدخول.

- «آنيا».. ابنتي الحبيبة، لا أنكر أنني منبهر من نضجك وطريقة تحليلك للأمور وهذا دليل قاطع أن للمدارس والمعاهد دورا كبيرا في بناء وتغذية فكر الإنسان... ولكن يجب أن تعلمي أن هناك أمورا لا تدرس إلا في الحياة وأعتقد أن نظرتك للفقراء الذين كلمتني عنهم هي نظرة خاطئة... إن الحياة التي نعيشها يا ابنتي لا تعترف أبدا بالضعيف ولا تحبه...

قد تبدو لك ظالمة وقاسية في ظاهرها ولكنها في الحقيقة عادلة بشكل لا يصدق... عندما يكثر البشر في الأرض وتختلط أجناسهم وأعراقهم كثيرا تسلط عليهم الطبيعة عواملها الصعبة من فقر وجوع وأوبئة وأمراض فتاكة حتى تقضي على العناصر الضعيفة الخاملة التي لا تنتج شيئا وتبقى فقط تلك العناصر القوية المقاومة والتي بإمكانها إنتاج نسل قوي وذكي يستطيع أن يعمر الأرض من جديد وبهذا تحدث توازنا جديدا ثم تكثر الأجناس وتختلط من جديد وتظهر تلك العناصر الخاملة مرة أخرى فتقوم الحياة بعملها مجددا وهكذا دواليك... لقد استنتجت هذه الأمور منذ صغري وبدون الحاجة لدخول للمدرسة بل وفهمت في وقت مبكر جدا أنني إذا لم أتبع غريزة البقاء الموجودة بداخلنا جميعا وأكافح بكل ما أملك من قوة فسأكون من تلك العناصر الضعيفة ولن أعيش أبدا الحياة الرغيدة التي أعيشها الآن...انظري إلى نفسك يا حلوتي وقارنيها بأقرانك في هذه المدينة فأنت تدرسين في المعهد وستتخرجين منه قريبا، تلبسين أرقى الثياب من أفخر أنواع الأقمشة، تأكلين ما لذ وطاب من الأكل وفوق كل هذا تملكين غرفة لوحدك في وقت يوجد في القرية عائلات لم تجد مكانا دافئا للنوم وهذا بالنسبة لي عدل كبير تقدمه الحياة لرجل أفنى عمره في العمل وجمع المال بعرق جبينه

- ليست الحياة التي لا تعترف بالضعيف يا أبي بل هناك فئة من البشر ترى نفسها فوق الجميع هي من تحاول جاهدة إبقاء الفرق شاسعا بينها وبين الفئة المستضعفة... معظم الأغنياء عاشوا الفقر في المراحل الأولى لحياتهم حتى صاروا بتجارتهم الغير عادلة باحتكار السلع وزيادة سعرها أثرياء ونبلاء وأسيادا لهذا تجدهم يكرهون الفقر ويمقتونه ولا يريدون الاقتراب منه مجددا حتى لا يتذكرون ذلك الماضي التعيس الأليم الذي مروا به من قبل... أما كره الفقراء للأغنياء فما هو إلا نتيجة حقد طبيعي على الطبقة التي استنزفت خيراتهم وأراضيهم وجعلتهم طبقة كادحة فهم يرون أنفسهم أولى بتلك المكانة العليا والثراء... إن كل هذا الاحتقار من الطرفين ما هو إلى كره رسمت حدوده النفس البشرية الظالمة... أنا حقا آسفة يا أبي ولكن ما سأقوله لك اليوم كان واجبا علي أن أقوله منذ سنوات عديدة وأظن أنها الفرصة المناسبة لمناقشة

الموضوع... أنت لا تفعل هذا من أجلنا بل من أجل نفسك فقط، أخبرتني أمي أنك لم تكن موجودا أثناء ولادتي لأنك كنت مشغولا بتجارتك وجئت بعد ولادتي بشهرين كاملين... كما أنني صرت لا أستطيع أبدا أن أتخيل رجلا يترك ابن أخيه اليتيم ينام مع الأبقار في إسطبل نتن ودون أكل في حين أنه يمتلك بيتا من طابقين... أخبرني يا أبي من فضلك ما دخل الحياة والطبيعة والعدل هنا؟ لم ندعوه للعشاء منذ عيد ميلادي العاشر، لم يدخل المدرسة ولا يعرف الكتابة إلا ما علمته أنا عندما كنا أطفالا أي قبل أن تأمرني أمي بألا أكلمه مجددا لأنه ضرب طفلا من أجلي، ماذا لو كان أخي؟ هل كان سيتلقى نفس المعاملة؟

تفتحت عيني «كارتر» دهشة وهو يقول:

- «آنيا»... يا ابنتي الصغيرة... هل ترين أباك لصا؟ أنا حقا مندهش من كلامك ولم أنتظر يوما أن أسمع هذا الكلام من ابنتي التي عملت طوال حياتي جاهدا لكي تعيش أفضل حياة ممكنة... نعم لم أكن موجودا عند ولادتك ولكنني بقيت معك ما تبقى من عمري، لقد كنت فقيرا من قبل ولا أخجل من ذلك أو أنكره... ولكنني لم أبقَ مكتوف اليدين لأنتظر من القدر أن يشفق علي مثل هؤلاء بل كافحت الفقر بكل قوة حتى مل وكره مني وتركني وشأني... عانيت وقاسيت كثيرا في البداية بل وكنت أبيت في العراء ليال متتالية لأبيع قطعة قماش واحدة حتى صرت ما أنا عليه اليوم أما بالنسبة لإدوارد فأنا لا أكرهه ولم أفكر في أذيته أبدا كما تظنين، أنا فقط أحاول أن أجعل منه رجلا يتغلب على الحياة قبل أن تتغلب عليه... تماما كما فعلت أنا في بداياتي... ثم إنك تعلمين أنني أغيب كثيرا عن البيت ولا يمكن أن يبقى معكن شخص آخر داخله، ماذا سيقول الناس عنا؟ سمعتنا فوق كل شيء يا ابنتي، ثم هل تعتقدين حقا أن والدتك ستقبل به في المنزل؟

- «شخص آخر» يا أبي؟ هل تفكر هكذا؟ هل تعتقد أن في هذه المدينة التعيسة البائسة التي هم سكانها الوحيد هو توفير رغيف خبز سيأبهون بـ «إدوارد» الراعي إن نام في البيت أو في الإسطبل؟ هل سيشكل هذا فرقا لهم؟ ثم هل تأبه لما يقوله الناس أكثر من اهتمامك بابن أخيك إن كان جائعا أم

لا؟ هل تفعل هذا إكراما لأمي التي لم تنجب ذكرا؟ ثم لو اتخذته كولد لها لكان اليوم سندا حقيقيا لنا في غيابك أو مساعدا لك في تجارتك وليس «شخصا آخر» كما سميته أنت...

كان «كارتر» يحاول أن يجد سببا ليقنعها بأن ما يفعله صحيح ولكن حجج «آنيا» كانت الأقوى في النهاية أمسك «كارتر» رأسه الذي احمر خجلا وجلس على طرف سرير ابنته وبقي صامتا برهة من الزمن ثم قال لها:

- «آنيا» ابنتي... يجب أن أخبرك أني سأغيب لعدة أيام لتجارة لي في الشمال... وستكون الرحلة الأخيرة لي فلقد تعبت كثيرا من كثرة السفر والترحال من مكان لمكان كما أن سني لم يعد يساعدني وقد حان الوقت لأخلد للراحة ولهذا سوف آخذ معي ما أملك من مال لأشتري به سلعا كثيرا فأنا أفكر في فتح محل كبير للأقمشة هنا ولن أجد شابا أفضل من «إدوارد» ليعمل فيه وستكون فرصة له كي يثبت حقا أنه شاب جدير بالثقة وأستطيع أن أأتمنه عليكم وعلى أموالي... فقط لا تخبرِ أحدا بذلك ولنبقيه سرا بيننا حتى أعود أما الآن فعانقي والدك لأنني سأخرج باكرا في الصباح.

نهض إدوارد كعادته في فجر يوم دافئ مغيم ينذر بقدوم أمطار غزيرة... لا يفكر أبدا فيمَ سيحدث له فكل ما عليه القيام به هو إخراج البقرات من الإسطبل، يلتقي «ماثيو» العجوز الذي لا يمل من نصحه بالرحيل، يصل إلى الهضبة ثم يعود في المساء لينام.

كانت هذه الخطوات الأربعة تلخص مفهوم الحياة عند «إدوارد» ولا يوجد لديه تفسير آخر أهم جزء فيها وأجملهم كان الجزء الأخير... لا يهم إذا كان اليوم هو يوم الأحد أو يوم الخميس ولا يهم الفصل إذا كان ربيعا أو خريفا و لا يهم إذا كان عيد الفصح أم عيد الميلاد المجيد فكلها سواء بالنسبة له، ما يهم حقا هو عندما يضع رأسه على الوسادة لينام...فعلا النوم سلطان...بالنسبة لإدوارد النوم ليس مجرد حالة عادية من الاسترخاء عند الكائنات الحية...ليس مجرد خمول في وظائف الجسم... وليس نتيجة طبيعية ليوم متعب... بل هو بوابة تأخذ روحه الجميلة من عالمه القذر إلى عالم آخر أجمل منه، يستطيع فيه أن يتخيل ما يحلو له، كانت تلك السويعات القليلة التي ينامها كفيلة

إلى حد ما بإعطائه شحنة تكفيه لليوم الموالي.

عندما فتح باب الإسطبل لإخراج البقرات وجدهن اثنتين واقفتين فقط أما تلك «المرقطة» فكانت كعادتها لا تزال نائمة في مكانها... ذهب إليها وضربها ضربتين خفيفتين متتابعتين برجليه ولكنها لم تتحرك.

في المساء عادت «آنيا» من المعهد والأمطار بدأت بالهطول ورائحة التراب تتصاعد مختلطة برائحة روث الأحصنة، شعرت بشيء غريب جدا وكأن جميع من مرت أمامهم يسترقون النظر إليها على غير عادتهم... وعندما تدير وجهها لهم يغيرون نظراتهم إلى الأرض تارة وإلى السماء تارة أخرى دخلت مسرعة إلى البيت ونزعت معطفها المبلل ورمته على أقرب كرسي وجدته أمامها... لما رفعت رأسها وجدت أمها جالسة تبكي بحرقة... حينها لم تقوَ ركبتاها على حملها فأول شخص جاء في بالها هو والدها المسافر خاصة مع وصول أخبار بوجود اللصوص وقطاع الطرق تلك الأيام وتذكرت نظرات من مرت بجانبهم

خفق قلب «آنيا» خفقة كبيرة تبعتها خفقات أخرى سريعة وسقطت على ركبتيها أمام والدتها واغرورقت عيناها بالدموع ثم سألتها بطريقة لا يطرح بها السؤال أبدا.

- لم أراك تبكي هكذا منذ وفاة خالي، فهل يستحق الأمر الذي حدث كل هذا البكاء منك؟

- (بصوت مبحوح قليلا) وكيف لا يستحق؟ ماذا تريدينني أن أقول لوالدك عندما يعود من سفره؟

- أوف... تنهدت «آنيا» من أعماقها فهذا يعني أن والدها بخير.

- وماذا حدث يا أمي ؟

- ماتت بقرتنا هذا الصباح، قتلها ذلك الأحمق وقال بأنه وجدها ميتة.

- «إدوارد»؟ لكن البقرة كانت مريضة وأبي أخبرنا بأنها تعبت كثيرا لأنها حرثت كثيرا هذا الموسم.

- لكن الطبيب قال أنها تناولت فطرا ساما وذلك الخبيث يعلم جيدا أين ينمو، أهكذا يرد الدين؟ ألم يتذكر أننا آويناه بعد وفاة والديه؟ أم عساه مل من الرعي فقرر التخلص من البقرات.

نهضت «آنيا» ووضعت يدها على ظهر أمها لتهدأها قليلا.

- لا تقلقِ يا أمي سأذهب لأكلمه فربما لم يكن الأمر متعمدا.

- لن تجديه... لقد طردته.

سقطت آنيا مجددا.

في هذه الأثناء كان «إدوارد» قد ابتعد عن القرية بضعة أميال وتوغل كثيرا داخل الغابة والأمطار تهطل عليه تدفعها رياح معاكسة لاتجاهه جعلت من القطرات كالسهام تضرب وجهه وصدره النحيف الشبه العاري

في وجهه المبلل اختلطت مياه الأمطار الباردة بدموعه الساخنة... كان يبكي بحرقة لم يبكِ مثلها من قبل في حياته... بكى على كل شيء... تذكر والدته التي ماتت وهو صغير... والده الذي لم يراه... الظلم الذي تعرض له والذل الذي صبر عليه والوقت الذي أضاعه هناك... العجوز «ماثيو» الذي كان دائما ما يحثه على السفر ولم يأخذ برأيه... «آنيا» التي خرج دون أن يودعها فلو كانت موجودة حينها لوقفت إلى جانبه فقلبها أنقى وأصفى من قلوبهم السوداء لم ينتبه حتى لخروجه بدون حذاء.

لم يكن ذلك اليوم أقسى أيام حياته فقد رأى ما هو أقسى منه بكثير ولكنه منعرج كبير في سلم حياته الزمني... لم يكن يعلم إلى أين هو ذاهب ولكنه يعلم أنه لن يعود... لقد شعر فعلا أنه لن يعود أبدا... كان يجري ويرى خيال أمه كثيرا بين الأشجار... بل وسمعها تناديه تماما كما كانت تناديه في صغره... سترتاح يا ابني... سينتهي كل هذا العذاب.

بدأت ضربات قلبه تتثاقل... خطواته تتثاقل... جفون عينيه تتثاقل... ثم مرة واحدة انطفأ كل شيء.

مرت ثلاثة أيام على الحادث ولم تكلم فيهم «آنيا» والدتها ولم تأكل ما تطبخه لها بل كانت تكتفي فقط بوجبة الغداء المقدمة لها في مطعم المعهد ويندي» لم تكن تبالي بذلك لأنها أنجزت الجزء المهم والذي كانت تصبوا إليه منذ مدة جد طويلة وهو طرد «إدوارد» من البيت... أما بخصوص ابنتها فقد كانت تعتقد أنها ستعتاد على الأمر وأن المسألة تتعلق بالوقت فقط.

- أتفهم غضبك مني يا بنيتي ولكني لا أراه سببا مقنعا كي تبقين بدون أكل.
- لا أشعر بالجوع.
- عندما يعود والدك سأخبره بأنك رفضت الأكل في البيت واكتفيت بوجبة واحدة في اليوم وسيغضب منك كثيرا.
- عندما يعود أبي سأخبره بأمور أكبر وأهم من الأكل وسنرى أي المواضيع سيثير غضبه واشمئزازه
- ابنتي «آنيا»... لن يعود «إدوارد» يجب أن يبحث له عن حياة أخرى بعيدة عنا فلقد صار رجلا يستطيع الاعتماد على نفسه ويجب عليك أن تقتنعي بذلك.
- إذا لم يعد فسأخرج للبحث عنه

في هذه الأثناء سمعتا طرقا على الباب.

هرولت «آنيا» لفتحه وكلها شوق لمعانقة والدها وإخباره كل شيء لكن عند فتحها الباب وجدت أمامها العمدة ومحافظ الشرطة وقس الكنيسة ووراءهما جمع لا بأس به من السكان والكل مطأطئا رأسه نحو صندوق خشبي موضوع أمامهم.

إن أهم غريزة عند الإنسان هي غريزة البقاء لهذا نجده يضع خططا للأشياء الهامة في حياته وخططا احتياطية إن لزم الأمر، إذا لم تنجح تلك الخطط الرئيسية أو الاحتياطية التي وضعها يجرب النجاح في أشياء أخرى ويرسم لها خططا جديدة ويبقى دائما يترقب النهاية إذا كانت فوزا أم خسارة... يعتقد أن هذه ما تسمى بغريزة البقاء ولكن النهاية عند جميع البشر هي الموت... إذن هذه ليست غريزة البقاء بل هي غريزة حب الفوز... لو فعلا رسم الإنسان خططا للبقاء لبقي حيا حتى بعد موته.

عندما تتوقف حياة الإنسان لا يعني بالضرورة أن حياة معارفه ستتوقف أيضا معه، ولكنها حتما ستأخذ منعرجا آخر تكون شدته تماما مثل شدة تأثير هذا الشخص الميت على نفوس معارفه، فوفاة الأخ أشد ألما من وفاة الصديق ولكن هناك دائما استثناءات مثلا أن تكون الصديقة في مرتبة الأخت أو الخالة في مرتبة الأم أو ابن العم في مرتبة الأخ.

الفصل الثاني

فتح عينيه بثقل شديد وكانت رؤيته الأولى عبارة عن ضباب كثيف يختلط بلون أرجواني... كثرت الأفكار في رأسه في فترة زمنية جد قصيرة لكنه أراد الوصول إلى نتيجة... بدأ الضباب ينجلي من عينيه واللون الأرجواني يتضح شيئا فشيئا... تبدو وكأنها ستائر لنافذة أو ما شابه... صداع لا يطاق إلا أنه أراد اكتشاف المزيد... فراش دافئ ووسادة ناعمة لقد كانت أمورا لم يعتد عليها في حياته... تجلت رؤيته بشكل واضح الآن... لقد كانت غرفة مرتبة بشكل مذهل، على يمينه باب الغرفة المصنوع من خشب أحمر فاخر وأمامه مباشرة نافذة طويلة تبدأ من الأرض حتى تكاد تلامس سطح الغرفة البعيدة مغلقة بزجاج وستائر من قماش ذو نوعية غالية بلون أرجواني تتخلله بعض أشعة الشمس، منضدة صغيرة عليها كأس ماء زجاجي وبجانبه ملابس مطوية، الوسادة والغطاء كانتا بنفس لون الستائر كل تلك الأمور كانت تدل على رفاهية أصحاب البيت، لكن أين هم؟ ومن هم؟

بقي على هذه الحالة من حيرة وانبهار حتى سمع طرقا خفيفا على الباب تبعه دخول سيدة تبدو من لباسها أنها من الخدم.

- صباح الخير سيدي، هل استعدت عافيتك؟

- صباح الخير سيدتي، نعم أشعر بتحسن ولكن من أنتم وأين أنا؟

- تفضل هذا الحساء الساخن، لقد أمرنا سيدي ألا نكلمك كثيرا وهذا من أجل صحتك ولكنه سيشرح لك كل شيء لاحقا عندما يعود في المساء.

- هل سأبقى في الفراش حتى المساء ؟

- حسنا... إذا كنت شعرت بتحسن فيمكنك المشي قليلا في الحديقة لكن لا تجهد نفسك كثيرا.

في هذه الأثناء دخلت فتاة أخرى مما جعل الخادمة تنحني برأسها كنوع من التحية والاحترام

- صباح الخير آنستي «سوزان»

- صباح الخير، كيف حال ضيفنا ؟ هل يشعر بتحسن؟

- نعم، حتى أنه يريد المشي قليلا

- حسنا، اتركينا الآن وسأناديك عندما أحتاجك
ثم نظرت إليه.
- صباح الخير، هل تشعر بتحسن ؟
كان فمه مفتوحا لأقصى درجة ممكنة فهو لم يرَ في حياته جمالا كالذي يقف أمامه.
- سيدي... صباح الخير.
- ص... صباح الخير آنستي
- هل تشعر بتحسن ؟
- نعم أنا بخير، أنا بأفضل حال.
- هل تود الخروج إلى الحديقة؟ الجو مشمس ورائع.
- نعم، إن أمكن.
- حسنا، تناول حساءك وارتدي تلك الثياب الموجودة بجانبك، أتمنى أن تكون بمقاسك لأنني اخترتها لك بنفسي وسأنتظرك في الرواق.
ما إن أغلقت «سوزان» الباب خلفها حتى نط من السرير وكأنه هر، قاوم بكل قوته كل ذلك الصداع والألم، شيء ما تغير بداخله وأعطاه جرعة من الحيوية والنشاط... أكل بضعة ملاعق من الحساء ثم ارتدى ملابسه الجديدة التي جعلته يشعر وكأنه رجل نبيل، حاول فتح الباب لكن شكل القفل كان غريبا عليه فهو لا يشبه المسند الخشبي الذي كان يغلق به باب الحظيرة فأخذ يديره يمنة ويسرة حتى فتحته «سوزان» من الخارج.
كانت «سوزان» أقصر منه قليلا بشرتها بيضاء كالثلج... شعرها أسود قاتم ينسدل حتى خصرها وكأنه حرير عيناها سوداوين واسعتين... وجفونها سمراء طويلة
قطعت «سوزان» تأمله ودهشته بصوت عذب رقيق
- تفضل، من هنا يا سيدي.
بدآ يمشيان في رواق واسع طويل يفترش بساطا أحمرا قاتما رسمت على جانبيه زخارف ذهبية اللون وعلى الجدارين علقت عدة لوحات مختلفة الأشكال توجد على بعضها صور لفرسان أما على البعض الآخر صورا لمعارك

مشهورة وبعد كل لوحتين يوجد باب غرفة.

بقيا يمشيان حتى وصلا إلى آخر الرواق أين يوجد على يمينهما سلالم تأخذ إلى الطابق الأرضي... نزلا إلى بهو واسع جدا توجد في كل زاوية من زواياه مجموعة من الأرائك الفاخرة، كان الصمت سيد الموقف بينهما فكل منهما ينتظر مبادرة الآخر في الكلام وكانت»سوزان» تنظر إليه بين الفينة والأخرى وكأنها تتفحصه مع ابتسامة جميلة رسمت على شفتيها

- تفضل، من هنا باب الحديقة.

- آنسة، هل يمكن أن أعرف أين أنا؟ ومن أنتم؟ فحيرتي تزداد شيئا فشيئا.

في هذه الأثناء كانا قد وصلا إلى باب الحديقة فتحته «سوزان» وقالت له بتلك الابتسامة الجميلة

- طبعا من حقك أن تعرف.

أخذته إلى وسط الحديقة أين توجد طاولة بيضاء بجانب بركة ماء تسبح فيها مجموعة من الإوز، جلس وهو مندهش من كل هذا الجمال المحيط به... كل شيء مرتب في هذا البيت حتى الأشجار قصت لتكون متساوية في الطول والحجم.

- اسمي «سوزان» ونحن عائلة «ويليامز» والدي «آرثر» هو من جلبك إلى هنا وكنت غائبا عن الوعي أغلب الأوقات فانتظرنا عدة أيام لتستعيد وعيك كليا

- ولكن أين وجدني والدك؟

- في البداية وجدك صديق والدي ملقى على جانب طريق غابي فحملك في عربته وأخذك إلى منزله الذي يبعد عن المكان الذي وجدك فيه مسيرة أربع ليال ولم يستطع أي طبيب من الذين أحضرهم أن يجعلوك تستفيق من غيبوبتك لهذا كانوا مجبرين على إرغامك شرب الماء وحساء الخضار لتبقى محافظا على طاقتك، وبقيت على هذا الحال حتى زاره والدي ووجدك هناك فأخبروه قصتك فقرر المجيء بك إلى منزلنا لأنه يعرف الكثير من الأطباء، وفعلا استطاع أحدهم أن يشخص حالتك بأنك تعرضت لصدمة نفسية حادة مما جعلك تسقط مغمى عليك في المكان الذي وجدوك فيه وما زاد صحتك

سوءا هو تعرض جسمك للبرد والأمطار، فكان يعطيك الدواء المناسب وأخبرنا ليلة البارحة أنك من المرجح أن تستفيق اليوم.

- كل هذه الأمور حدثت لي؟ لا أتذكر منها شيئا سوى أني كنت أفتح عيني تارة فأجد نفسي في عربة وتارة في بيت.

- لقد كنت تهذي كثيرا بكلام غير مفهوم لكني استطعت أن أسمع كلمة «آنيا» في العديد من المرات... من تكون ؟

انحنى رأسه إلى الأسفل واغرورقت عيناه بالدموع.

- سيدي، هل يمكن أن أعرف من أنت ؟وما هي قصتك؟

كانت الدموع قد بدأت بالنزول دون أن تطلب الإذن من صاحبها وبدأ بشبك أصابع يديه ولم يستطع الكلام... فهمت «سوزان» أن ما حدث له ليس بالأمر الهين وأن الشخص الذي يبكي أمامها يحمل على كتفيه ما هو أثقل من الجبال.

- سيدي أنا حقا آسفة إن كنت قد ...

- اسمي «إدوارد» ، التحق والدي بالجيش وترك والدتي حاملا بي فلم يعد إليها إلا وهو ميت وكان عمري بضعة أشهر فقط فأنا لم أرَ والدي أبدا، بقيت والدتي بعدها وحيدة ورفضت الزواج مجددا بالرغم من صغر سنها إخلاصا لوالدي المتوفى ولم تشأ أن تبيع المنزل بالرغم من أن سعره كان مرتفعا وجذب إليه الكثير من الزبائن وصارت تعمل خادمة في البيوت لكسب مال تسد به الرمق بعد انقطاع راتب أبي من الجيش، عندما بلغت خمس سنوات جاء إلينا عمي وطلب منا المنزل الذي تركه لنا والدي بحجة أنه أقرضه مالا من قبل ولا يسد ذلك القرض إلا ثمن المنزل، ولكن بعد تدخل الجيران صار مرغما أمامهم أن يعطينا غرفة صغيرة أنام فيها مع والدتي.

كانت أمي تدخر المال وتخبرني أنه لي حتى أستطيع دخول المدرسة عندما أبلغ سبع سنوات فلقد كنت لها الأمل الوحيد في إخراجها من الذل الذي كانت تعيشه .

عندما بلغت سبع سنوات جاء ذلك الوباء اللعين الذي ضرب البلاد وقام باختيار أرواح الفقراء الذين لا يملكون ثمن اللقاح وكانت أمي حبيبتي وسندي المتبقي ممن اختارهم أما أنا فنجوت منه لأن المال الذي ادخرته أمي كان يكفي لشراء لقاح واحد فقط فآثرتني على نفسها وقامت بتلقيحي ولم يشأ عمي مساعدتها بحجة أنه لا يملك المال الكافي

وبما أن الحظ السيء يأتي تباعا فبعد وفاتها بأيام معدودة فقط جاء إلى البيت رجل من الجيش وأعطى عمي مبلغا كبيرا من المال كان قد اقترضه من والدي قبل وفاته وكان طوال هذه السنوات يبحث عن زوجته ليعطي لها تلك الأموال ولكن بما أنها ماتت وأنا كنت صغيرا في السن فالوحيد الذي بإمكانه استلامه هو عمي «كارتر»، فقام بشراء قطعة أرض من أحد الجيران وبنى عليها إسطبلا ثم اشترى بضع معزات وأخبرني أن المدرسة ليست للشجعان أبدا وحتى أصير في المستقبل رجلا قويا يجب أن أقوم برعي الماعز وبيع الحليب فصدقته ببراءة الأطفال وأنا لا أعرف حينها ما هو الفرق بين الخطأ والصواب وكنت أقوم بعملي بكل عزم وحماس حتى يعجب بي كثيرا ويشكرني، بعدها بأشهر قليلة أخبرني أنني صرت بطلا كبيرا وصار بمقدوره الاعتماد علي في مهمة أخرى وهي حراسة الماعز ليلا لحمايتها من اللصوص والسبيل الوحيد لذلك هي أن أنام في كوخ داخل الإسطبل كان مخصصا للخردوات، لم أكن أتذكر حينها أن أحدا من السكان تعرض للسرقة فبالطبع ليس هذا هو السبب الرئيسي لأبيت في الكوخ بل أراد فقط أن يخرجني من البيت لأن «ويندي» زوجته كانت تكرهني جدا فما كان علي إلا أني نظفت الكوخ واتخذته مسكنا لي منذ ذلك الوقت.

كانت ابنتهما «آنيا» لا تشبههم في كل شيء...فتاة ذات خلق لا مثيل له أبدا فعند عودتها من المدرسة كانت تقوم بتعليمي كل ما درسته في ذلك اليوم من كتابة وحساب وكانت تجلب لي الأكل من البيت حتى أمرتها والدتها بألا تلتقي بي مجددا بعد أن قمت بضرب ولد بحجر على رأسه لأنه كان يضايقها فصرنا نلتقي نادرا مرة كل شهر أو شهرين وكانت كلما تقدمت في العمر إلا وبقيت بنفس طيبتها وبراءتها لدرجة أنها كانت تخبئ لي الأكل في فردة حذاء حتى لا يراه والداها.

مع الزمن تغيرت الكثير من الأمور وصرت مجبرا على توفير الأكل بنفسي من الأجر الزهيد الذي يعطيني إياه عمي لقاء بيعي حليب الماعز... كان عدد الماعز يزيد أحيانا وينقص أحيانا أخرى فمنها ما يموت ومنها ما يباع ويأتي غيرها في مكانها، يعني أن الشاب الجالس أمامك الآن تخرجت على يده أجيال كثيرة من الماعز (ضحك والدموع مازالت في عينيه وضحكت سوزان معه)... بقيت على هذا الحال حتى بلغت ثمانية عشر سنة، حينها قرر عمي «كارتر» بيع جميع الماعز الذي كان لدينا وشراء ثلاث بقرات نبيع حليبها ونؤجرها لأصحاب الحقول في مواسم الحرث أو لجر العربات وتدوير الطواحين والرحى حينها بدأ عملي يصعب علي كثيرا لأنني صرت أستغرق وقتا أطول للوصول إلى الهضبة التي أرعى فيها مما جعلني أنهض باكرا ولا أعود إلا مع الظلام متعبا منهك القوى.

قبل أيام قليلة بدأت أعراض المرض تظهر على إحدى البقرات مما جعلها لا تأكل جيدا وبدأ جسمها يهزل ويضعف ومشيتها تتثاقل فقمت بإخبار عمي بذلك ولكنه قال بأن السبب هو التعب وهذا بعد أن حرثت كثيرا هذا الموسم، ولكن بعد سفره ماتت تلك البقرة فذهبت إلى البيت، نزعت حذائي عند المدخل كما كانت تأمرني زوجة عمي وقمت بطرق الباب ففتحته لي وعندما رأتني قالت لي بأنها لا تملك نقودا لتدفع لي أجري هذا الأسبوع لأن عمي غير موجود في البيت لكنني أخبرتها بأن سبب مجيئي إليها ليس الأجر بل موت البقرة، فدفعتني لأسقط على الأرض وبدأت بالصراخ وكأنها تدعو الناس للتجمع فلبوا نداءها مهرولين لرؤية ما يحدث، عندما رأت جمعا لا بأس به بدأت تشير بإصبعها نحوي وتقول وأنا ساقط على الأرض

- هذا الخائن لما علم بسفر زوجي قام بقتل إحدى البقرات

بدأ الجميع ينظرون إلي نظرة احتقار حتى قبل أن يتأكدوا من كلامها فعجبت منهم لأني لم أؤذي أحدا من قبل بل كنت لا ألتقِ بهم إلا نادرا، فخرج من الجمع أحد أطباء المدينة وكان صديقا لعمي، دخل الإسطبل وألقى نظرة خاطفة على عيني البقرة ولسانها ثم قال بأن السبب المرجح لموتها هو تناولها لفطر سام، فبدأت بالصراخ مجددا.

- أرأيتم ؟ ألم أخبركم أنه هو من قتلها؟ إنه يعلم جيدا أماكن نموه... ارحل بعيدا عنا أيها الخائن، لا أريد رؤيتك مجددا في بيتي.

حينها لم أشعر بنفسي إلا وأنا أجري خارج المدينة تحت الأمطار حتى استفقت هنا في بيتكم.

كانت «سوزان» تستمع له بخشوع تام وعيناها تدمعان من شدة التأثر فهي لم تسمع قصة كهذه حتى في الروايات الخيالية... كما أن مستواها المعيشي لم يسمح لها بأن تحتك بشخص فقير من قبل لتعرف قصصهم ومعاناتهم

- «إدوارد»... تملك اسما ملكيا فكيف عانيت كل هذا البؤس والشقاء؟

- ليست الأسماء من تظهر حقيقة الأشخاص فقد تعلمت منذ زمن بعيد كيفية تجاهل الاسم الذي يلقبونني به ووثقت فقط في ماهية نفسي الحقيقية... كنت أسمع اسمي ثلاث مرات فقط في اليوم مرتين من عجوز يدعى «ماثيو» ألتقي به عند مدخل المدينة ومرة من عمي «كارتر» قبل أن أنام، لست كما أبدو عليه من الخارج فأنا بداخلي شخصا فارق الحياة قهرا وليست الحياة القاسية التي عشتها من قتلني بل هو النهوض من النوم كل يوم لمواجهة أشخاص يسري تيارهم عكس تياري عمدا، يلومونني حتى وإن لم أفعل لهم شيئا، كانوا يلومونني لأني لم أكن أجادلهم على ما يقولون ويفعلون لي...

- ألم تكن تملك أصدقاء؟

- كنت ألتقي بالكثير من الشباب في الهضبة التي أرعى فيها البقرات لكننا لم نكن أصدقاء... الجوع وحده من كان صديقي الوفي، لم يخذلنِ يوما وبقي بجانبي معظم فترات حياتي.

- ألم تشعر بالوحدة ؟

- بعد وفاة والدتي، حتى ولو صاحبت جميع البشر فسأشعر بالوحدة

فجأة تغيرت ملامح «سوزان» من الطمأنينة والحزن إلى الغضب وقالت بنبرة حادة:

- وتلك الفتاة الطيبة التي تدعى «آنيا» ألم تحاول تغيير شيء؟ ألم تستطع أن تكلم أهلها بشأن معاملتهم الظالمة معك؟

- وما الذي تستطيع فعله تلك المسكينة؟ كانت تشفق علي كثيرا، كنت أشعر أنها على وشك البكاء حتى وهي تضحك معي، كانت تخجل كثيرا من تلك المعاملة ولكن في النهاية هم أهلها... في الأيام الأخيرة، حاولت مساعدتي وبدأت تحضر لي الأكل كل يوم بل وكانت ترتب لي حتى السرير

- هل كنت تكره عمك «كارتر» ؟

- لا أنكر أنني غاضب منه حقا بعد كل ما فعله بي وبوالدتي طوال هذه السنوات ولكني لم أكرهه يوما، أتذكر عندما كنت صغيرا سألت أمي عن شكل أبي كيف يبدو فطلبت مني أن أنظر إلى عمي «كارتر» لأنه يملك عيونا تشبه عيون أبي كثيرا، وكانت تطلب مني أن أطيعه وأستمع لكل ما يقوله لي

- وماذا كان يبقيك هنالك؟ كان بإمكانك أن تتركهم وترحل لتبحث لك عن حياة جديدة

- لقد كان منزلنا ما يبقيني هناك، أبي من اشتراه بعرق جبينه وماتت أمي بين جدرانه...

- وزوجة عمك... ما هو سبب كرهها لك وحقدها عليك إلى هذا الحد

- سر خطير أعرفه عنها... لو بحت به لعمي لقتلها

- هل أستطيع معرفته؟

بعد سماع صوت خطوات تقترب منهما التفتت»سوزان» إلى يمينها فلمحت والدها قد اقترب منهما فنهضت وعانقته بشدة ووقف «إدوارد»

- أبي، لقد عدت باكرا اليوم على غير عادتك

- نعم، أنهيت عملي فقلت لم لا أحضر وجبة الغداء مع ابنتي ثم استدار ناحية «إدوارد» وقال : ولكنني لم أكن أعلم أن هناك مفاجأة بانتظاري

- اسمه «إدوارد»يا أبي، لقد أفاق هذا الصباح

- كيف حالك يا بني؟ هل استعدت عافيتك؟

- نعم سيدي، شكرا لكم على كل ما فعلتموه لأجلي أنا حقا لا أعرف كيف أرد هذا الدين لكم

- ابني «إدوارد» كل ما أريده منك الآن هو أن ترتاح فمازال جسمك بحاجة إلى الراحة، ومرحبا بك في بيتك وعائلتك الجديدين.

- شكرا لك سيدي آرثر» لن أنسى لكم هذا المعروف ما حييت ولكن يجب أن أغادر في أقرب وقت ممكن، أمامي الكثير لأقوم به

- لن تغادر إلى أي مكان يا «إدوارد»، حياتك الجديدة معنا في هذا البيت. لا تقلق يا بني فقد سألت عنك كثيرا وأعرف قصتك كلها وعندما تتعافى سأبحث لك عن عمل يشغلك

- هذا كثير يا سيدي، لا أريد أن أكون عبئا على أحد

- أولا، لا تنادِني «سيدي» مجددا بل نادني «عمي»، ثانيا لن تكون عبئا أبدا بل ستكون ابني الذي طالما حلمت به، أخيرا إذا رفضت البقاء معنا فلن أسامحك أبدا.

لم يجد «إدوارد» ما يقوله أمام كل هذا الجود والكرم غير السكوت والإجابة بجملة مختصرة جدا

- كما تريد يا عمي

- عانقه السيد «آرثر» بحرارة وهو يقول : حسنا لنتناول وجبة الغداء معا

مضى ذلك اليوم بروعة لا تصدق فبالنسبة لإدوارد» كان اليوم الأول في تقويمه الجديد فبعد غداء عائلي جميل شعر فيه «إدوارد» أنه فرد من العائلة عاد «آرثر» إلى عمله وخرج «إدوارد» مجددا مع «سوزان» إلى الحديقة... كان جوا ربيعيا جميلا وشعرا بالاطمئنان لبعضهما البعض وتكلما في كل المواضيع التي يتكلم فيها شخصان تعارفا للتو...

- بيتكم كبير ورائع

- شكرا لك، لكنه فارغ كما ترى

- نسيت أن أسألك عن أهلك؟ أخبريني عنهم

- أبي محامي وعضو في مجلس البلدية ولدي أخت اسمها «أماندا» تكبرني بأربع سنوات متزوجة في المدينة المجاورة أما والدتي فقد تركتنا ورحلت إلى الحياة الأبدية منذ خمس سنوات بعد أن أصابها ورم خبيث لم يقدر عليه أفضل أطباء البلاد.

- حقا أنا آسف إن كنت قد...

- يبدوا أننا متعادلان الآن

انفجرا من شدة الضحك، كلاهما لم يتكلم ولم يضحك هكذا منذ زمن طويل، يستلقيان مرة على العشب ومرة على جانب البركة ومرة يلعبان بالمراجيح، شعرت «سوزان» معه بالطمأنينة فقد وجدت فيه من يملأ عليها فراغها، بل وجدت فيه كل شيء، شاب وسيم ومهذب، يعبر عما بداخله بكل أريحية ودون تكلف كما أن الشقاء الذي عاشه طول حياته جعل منه رجلا قويا مدركا للحياة بالرغم من صغر سنه، كان عكس الرجال الذين تعرفهم، أبناء أصدقاء أبيها الأثرياء الذين تراهم فقط في الحفلات بملابسهم المطرزة كملابس النساء ويعلقون على جوانبهم سيوفا فضية منقوشة لا تشبه أبدا تلك التي يقاتل بها الرجال في المعارك الحقيقية

- ما رأيك أن نقوم غدا بجولة في المدينة ومنها إلى السوق؟

- سيكون يوما رائعا.

- وكيف عرفت؟

- سأخرج من دون البقرات

أرادت «سوزان» أن تمازحه وتدفعه على الأرض فسحبها وسقطا معا، نظرا إلى السماء وكانت الشمس قد بدأت تسحب آخر أنوارها من الأرض، لم يشعرا بمرور الوقت فجمال الحديث وحلاوته أنستهما كل شيء... استدار «إدوارد» ناحيتها وقال:

- في مثل هذا الوقت أكون قد دخلت إلى ذلك الجحر الصغير أهيأ نفسي للنوم بعد يوم متعب وطويل

- انسى ذلك الجحر والبقرات وتلك الحياة البائسة فأنا معك الآن، ولن أتخلى عنك أبدا

كانت إجابة عفوية منها لكن أثرها كان كبيرا عليه... فهو لم يسمع هذه الجملة من قبل بل ولم يكن يعلم بوجودها من الأساس، كيف يمكن لشخص ألا يتخلى عن شخص آخر؟ في بعض الأحيان نتخلى حتى عن أنفسنا فكيف لا نتخلى عن أشخاص بالكاد عرفناهم... لا يبدو كلاما منطقيا بالنسبة لشخص لم يسمع جملة «صباح الخير» منذ أربعة عشر عاما... تركه والده قبل أن يراه، وأمه عندما كان طفلا صغيرا وعمه ما تبقى من حياته فكيف لهذه الثرية الجميلة أن لا تتخلى عنه بعد أربعة عشر ساعة فقط من لقائها به.

- ما بك يا «إدوارد»؟ أين شرد ذهنك؟
- لقد بدأت أشعر بالنعاس.
- مازال الوقت مبكرا لتناول العشاء، بعدها يمكنك الصعود إلى غرفتك لترتاح قليلا .
- لا أشعر بالجوع، ولكن مازلت أشعر بدوار خفيف كما أني اعتدت النوم في هذا الوقت، سأصعد مباشرة لأرتاح
- كما تريد، لكن لا تنسَ النهوض باكرا لنقوم بجولة في المدينة كما اتفقنا.
- قد أنسى كل شيء إلا النهوض باكرا.

صعد «إدوارد» إلى غرفته وغير ملابسه بعد أن وجد الخادمة قد وضعت له ملابس النوم فوق سريره ثم دخل في فراشه الدافئ وبدأ يتذكر أيامه الماضية حين كان يدخل كوخه الضيق ويحادث نفسه كل ليلة بتلك الأسئلة... خاصة ذلك السؤال الذي اعتقد أنه لا يملك إجابة، الجواب هو أن يغير المكان فقط... أن يعمل بنصيحة المجنون «ماثيو»، الأمور لا تتغير لوحدها بل نحن من يغيرها... نفس المقادير ونفس الخلطة ونفس التوقيت تحت نفس درجة الحرارة سيعطي حتما نفس الكعكة، المعطيات هي التي تتحكم في النتائج فإذا أردنا تغيير النتائج علينا أن نتلاعب بالمعطيات، يستطيع المرء القيام بالخطوة الأولى للتغيير ولكن غريزة حب الفوز هي التي تجعله يخاف من الانهزام، دائما ينسى أنه حتى الهزيمة وتكون للشجعان فقط لأن الجبناء لا يخوضون المعارك أصلا

وتلك الحسناء؟ هل هي من المعطيات أم من النتائج؟ هل تشفق عليه أم عساه شيء آخر؟ كيف ارتاحت له بسرعة كبيرة؟ لماذا لم تبعد عيناها عنه؟ لماذا ارتاح لها هو أيضا بسرعة ولم يبعد عينيه عنها؟ لم يحب «إدوارد» في حياته من قبل فهو لا يعلم كيف هو الحب أبدا... كثرت عليه الأسئلة فارتأى أن ينام وينتظر ما الذي سيحدث مع الأيام

كانت «سوزان» مع والدها العائد من عمله يتناولان العشاء ويتكلمان عن الوضع الراهن، موضوع «إدوارد» طبعا.

- كيف عرفت قصته يا أبي؟

- أخبرني بها صديقي الذي وجده أولا فقد كان يتاجر كثيرا في مدينة «فوانيمور» كما أنه كان حاضرا عندما طردته زوجة عمه وعندما غادر صديقي هذا المدينة وجد «إدوارد» ملقى على جانب الطريق فحمله معه ولم يرد إعادته إلى القرية.

- وهل سيبقى معنا ؟

- بالطبع... وما رأيك أنتي؟

- إنه هدية من السماء يا أبي... وهدايا السماء لا ترفض

- كم هي سخيفة هذه الحياة، حتى زوجة عمه كانت بحاجة إلى من تعتمد عليه في غياب زوجها ولكنها طردته فلو اتخذت منه ولدا لكان اليوم أفضل سند لها

- ابنتي «سوزان» تعطينا الحياة الكثير من الهدايا فإن نحن أحسنا استغلالها أبقتها لنا وأعطتنا المزيد وإن نحن أسأنا استغلالها أخذتها منا وأعطتها لغيرنا، وهاهو يأتي إلينا بنفسه، ما رأيك به يا «سوزان».

احمر وجه «سوزان» خجلا وارتسمت عليها ابتسامة جميلة تدل على سعادتها وقالت: الرأي رأيك يا أبي... حقا إنه شاب ذكي، بالرغم من عدم دخوله المدرسة إلى أنه سريع الفهم والاستنتاج فإذا سألته عن أي موضوع سيعطيك تفسيرات له من كل الجوانب

- سأختبره يوما ما

- أبي سأقوم غدا بجولة معه في المدينة، ما رأيك؟

- بالطبع، كنت سأطلب منك ذلك، استمتعا بوقتكما ولا تنسي أن تأخذيه إلى السوق كما يجب أن يدخل إلى المعهد الخاص ليتعلم القراءة والكتابة

- كما تريد يا أحلى أب في الوجود...

قبلت أباها وصعدت مسرعة إلى غرفتها وكأنها تملك جناحين... دخلت الغرفة وأغلقت الباب وبدأت تدور حول نفسها كما تفعل الفتيات الصغيرات... ألقت بنفسها على سريرها وبدأت تنظر إلى السطح وقد رسمت فيه صورة ل»إدوارد» وبدأت تكلم نفسها بصوت خافت: لماذا أنا سعيدة هكذا؟

هل بسببه؟ هل أعجبته؟ لماذا كنت أنظر إليه كثيرا؟ ولماذا كان ينظر إلي كثيرا؟ هل أحبه؟ هل يحبني؟ أم عساه مجرد شعور؟... تغيرت ملامحها إلى الحزن فجأة وكأنها تذكرت شيئا مزعجا فنهضت من السرير على عجلة وجلست أمام مرآتها وبدأت تلعب بشعرها وهي تقول:

- ولكن حتى وإن أحببته وأحبني فلن يكون لي...لا أستطيع الزواج منه... تنهدت زفيرا طويلا وقالت : سأترك الأيام تفعل بنا تريد

في صباح اليوم التالي خطت خطوتها الأولى في الحديقة وهي بأبهى حلة... كانت الشمس قد طلعت وبدأت تعكس ألوانها على قطرات الندى الموجودة فوق الأزهار، كان جالسا هناك... شعره الذهبي منسدل على كتفيه وهو ينثر حبات القمح للحمام المتجمع حوله... ما أجملهم... هو والحمام والصباح وقطرات الندى ما أجملهم... شعرت وكأن الشمس والأرض لا يفصلهما غير هذا المشهد.

اقتربت منه بهدوء ووضعت يدها على كتفه وهمست في أذنه بصوت صباحي مختلط ببحة جميلة

- لم أكن أعلم أنك تحب الحمام

رد عليها بابتسامة جميلة وصوت خافت

- أحب كل الأشياء التي لا تتكلم... تمتلك غموضا جميلا

ردت على ابتسامته بأخرى أجمل منها وجلست على الكرسي الفارغ بجانبه، وضعت يدها على خدها وبدأت تتأمل فيه من جديد، عيناه الزرقاوان كلون السماء لا مثيل لجمالهما، شفتاه المتشققتان ترويان ما تعرضا له من نسمات الصباح الباردة، يداه الخشنتان المليئتان بالخدوش يخبران عن كل الأعمال الشاقة التي مرت عليهما

- هل تناولت فطورك أيها الوسيم؟

- نعم

- بدوني ؟

- انتظرتك طويلا لكنك على ما يبدو كسولة ولا تستطيعين النهوض باكرا فتناولت فطوري مع عمي «آرثر» وتكلمنا كثيرا... لقد خرج منذ قليل وطلب منا أن نزوره في مكتبه

تثاءبت ووضعت رأسها على الطاولة وهي تقول: لم أستطع النوم باكرا ليلة أمس... حسنا، لنخرج إذا

دخلا إلى بهو المنزل ثم خرجا من الباب الرئيسي إلى حديقة أخرى صغيرة أمام المنزل يحيط بها سور خشبي أبيض اللون، ومنها خرجا إلى شارع طويل تراصت على جانبيه منازل متشابهة من حيث طريقة البناء ولون الطلاء... كل منزل يوجد أمامه حديقة جميلة أحيطت بسور خشبي مطلي بطلاء أبيض أيضا تستطيع من خلال النظر بين خشباته أن ترى جمال تلك الحدائق ويوجد في مقدمة كل حديقة باب حديدي بجانبه صندوق بريد وكأنه منزل واحد مكرر عدة مرات، فصلت بين تلك المنازل طريق واسعة عبدت بحجارة رمادية اللون لامعة ومتساوية في الحجم وغرست على رصيفيها شجرة بين كل منزلين متجاورين زادت ذلك الشارع جمالا بأزهارها الوردية الصغيرة على أغصانها... اندهش «إدوارد» من كل هذا التناسق وبدأ يمشي وهو ينظر يمينا ويسارا حتى قطعت دهشته «سوزان» قائلة:

- لا تتعجب من جمال هذا الشارع ونظافته فمعظم سكانه من المحامين ورجال السياسة... ثم أشارت إلى لافتة صغيرة في صندوق بريد وصلا إليه وقالت: هذا منزل السيد «دافيد» نائب العمدة والبيت الذي يقابله هناك هو بيت السيد «بيتر» محامي ورئيس جمعية المحامين التي ينظم إليها أبي قاطعها «إدوارد» وهو يهز رأسه باهتمام:

- فهمت من كلامك أن هذا هو أجمل شارع في المدينة

- لا، بل هناك شوارع أجمل وأرقى منه بكثير... تلك الشوارع التي يسكنها كبار التجار وأصحاب المزارع والمحاسبون... تعال لأخبرك عن جيراننا أولا

واصلا السير على طول الشارع وعند كل بيت يقفان لتخبره «سوزان» عن صاحب البيت وعمله وأيضا عن صاحب البيت المقابل له وعمله ولم يفهم «إدوارد» الكثير من المناصب وما هو دورها فتشرح له «سوزان» ذلك المنصب بطريقة مبسطة وأمثلة سهلة عن الحيوانات ومنصبها في الغابة جعلتهما يضحكان كثيرا حتى وصلا إلى نهاية ذلك الشارع الطويل وأطلا على ساحة دائرية واسعة جدا تتوسطها ثلاث نافورات متشابهة تماما وتحيط بتلك الساحة محلات لبيع القماش والتوابل والأواني النحاسية وبين كل ثلاث محلات يوجد زقاق... أخبرته «سوزان» أنهما وصلا إلى سوق المدينة واقترحت عليه أن يقوما بجولة دائرية على محيط تلك الساحة حتى يتسنى لهما المرور على جميع المحلات فأومأ برأسه موافقا وبدآ بالسير على اليسار ويتوقفان عند كل محل لتخبره «سوزان» عن المحل وما يبيع من سلع ثم يلقي نظره عند كل زقاق فرعي فيجدها أيضا مليئة بالمحلات على جانبيها فأشار إليها بيده وهو ينظر إلى «سوزان» كأنه يطلب منها أن تشرح له فقالت:

- كل زقاق من هذه الأزقة هو عبارة عن مجموعة محلات ولكنها تعرض تقريبا نفس السلع فهذا الزقاق مثلا خاص ببائعي المجوهرات وأمسكت بيده وقالت له بعد أن مرا على ثلاث محلات أخرى : وهذا الزقاق خاص ببائعي القماش... توقف «إدوارد» قليلا ثم قال لها:

- وما الفرق بينها وبين المحلات المحيطة بالساحة؟... أشارت إليه «سوزان» بيدها وكأنها تطلب منه أن يمشي وقالت له: الفرق هو أن المحلات المحيطة بالساحة هي محلات تبيع بالتجزئة... نظر إليها «إدوارد» باستغراب وقال:

- تجزئة؟

أمسكت سوزان بيده وسحبته ليمشي وقالت:

- نعم، تجزئة، المحلات الموجودة داخل الأزقة تبيع السلع بالجملة، يعني أن زبائنها هم عبارة عن تجار يشترون السلع بكميات كبيرة ثم يبيعونها في المحلات المحيطة بالساحة لجميع السكان وهذا هو معنى كلمتي»جملة» و»تجزئة» في التجارة... وذاك الذي يطوف حولهم معلقا حقيبة جلدية على كتفه يقبض منهم ضرائب مقابل أن يضعوا سلعهم في السوق وتذهب تلك المداخيل إلى صندوق البلدية

قاطعها «إدوارد» وهو يشير إلى شاب رث الثياب يجر عربة صغيرة بها خضر يهم بالخروج من السوق:

- وما عمل ذلك الشاب الذي يجر عربة؟

نظرت سوزان بين الناس تبحث عن ذلك الشاب حتى رأته فقالت:

- هؤلاء يسمون باعة متجولين، يشترون سلعا ويطوفون بها في أحياء المدينة وشوارعها حتى يتسنى لمن ليس بمقدورهم النزول إلى السوق الشراء منهم مع زيادة في السعر قليلا

ضحك «إدوارد» وقال لها:

- هؤلاء هم أذكى التجار... يبدو وكأنهم يجنون أموالا أكثر من غيرهم سألته «سوزان» باستغراب:

- وكيف ذلك؟

أجابها قائلا:

- لأنهم لا يدفعون ضرائب على سلعهم التي يبيعونها ويزيدون على سعرها...

ابتسمت «سوزان» من ذكائه وطلبت منه المشي لتريه المزيد حتى وصلا إلى زقاق وجده «إدوارد» مغايرا للأزقة التي سبق ورآها... تبدو جدرانه قديمة وخالية من أي محلات فيه، أراد أن يسأل «سوزان» فأمسكت يده مجددا وقالت له مبتسمة:

- لا يمكن أن تعرف كل شيء في اليوم الأول يا «إدوارد»، لن أترك يدك هذه المرة حتى لا تتوقف مجددا...

واصلا السير على محيط الساحة وسوزان» تشرح له تارة ويسألها تارة أخرى حتى وصلا إلى زقاق هادئ، محلاته جميلة لكنها لا تعرض أي سلع خارجها كما أن مرتديه من أصحاب البدلات الرسمية... دخلت فيه «سوزان» وقالت له بعد أن لاحظت استغرابه:

- هذا الزقاق لا توجد فيه محلات للبيع بل هي مكاتب يقدم أصحابها خدمات يطلبها السكان حسب شرائحهم، هذا المكتب مثلا يساعدك في إيجاد منزل تشتريه أو يبحث لك عن زبائن لمنزل تريد أن تبيعه ويسمى صاحبه سمسارا فهو ويأخذ الفائدة من البائع ومن المشتري حسب الاتفاق المسبق...

وهذا المكتب يقوم بتوصيل طرود أو رسائل أو أشياء ثمينة تريد إيصالها إلى مكان ما وتخشى أن تحملها معك أثناء سفرك... وهذا المكتب يقوم بقرضك نقودا لتعيدها له على أقساط مع الفائدة طبعا وترهن عنده شيئا تملكه يتجاوز سعره سعر المبلغ الذي قمت باقتراضه تماما كما يفعل البنك ولكن الناس تفضل هذه المكاتب لأنها تأخذ فوائد قليلة، فأجابها «إدوارد» حائرا:

- فوائدها قليلة ولكن زبائنها كثر... حسابيا هذه المكاتب تجني أرباحا أكثر مما يجنيه البنك...

ابتسمت «سوزان» مجددا من شدة ذكائه وقالت له بعد أن وصلا إلى مكتب جميل ذو طابقين وهي تشير إلى لافتة علقت عند مدخله:

- وهناك مكاتب تقدم خدمات في المحاماة مثل هذا، بدأ «إدوارد» بقراءة اللافتة التي علقت على مدخله بصوت خافت حتى لا تسمعه «سوزان» وهو يتلعثم عند القراءة:

- مك...تب ال...م..حامي «آر...ثر ويل..يام» نظر إليها وهو يقول مبتسما: إنه مكتب والدك...

كان السيد «آرثر» قد أنهى عمله في المكتب عندما زاره «إدوارد» و«سوزان» فطلب منهما مرافقته ليشتري ملابس جديدة ل«إدوارد» وبعض المستلزمات التي يحتاجها ويعودوا بعدها إلى البيت لتناول وجبة الغداء

بعد الغداء طلبت «سوزان» من «إدوارد» أن يلتقيا في الحديقة مجددا كما فعلا بالأمس لأنها تحتاج أن تتكلم معه في موضوع مهم ووافق «إدوارد» على ذلك

نزل «إدوارد» إلى الحديقة مع غروب الشمس بعد أن أخذ حماما وقسطا من الراحة... ووجد «سوزان» جالسة تحت شجرة فقام بالمشي على رؤوس أصابعه حتى يباغتها ولكنها استدارت له قبل أن يصل إليها وقالت له وهي تضحك:

- لقد عرفت بأنك قادم

- لأنك سمعت خطواتي

هزت رأسها نافية وقالت:

- لا أبدا

ثم ضربت أنفها بإصبعها ضربتين صغيرتين وقالت:
- بل شممت رائحة عطرك...
وأزاحت له مكانا بجانبها ليجلس، فجلس وهو يقول:
- هل تقصدين بكلامك بأنني أضع الكثير من العطر؟
- لا ولكن اختيارك لهذا النوع كان صائبا، تملك ذوقا رفيعا... فرفع «إدوارد» حاجبيه وأغلق عينيه كنوع من التباهي، فابتسمت وقالت له:
- هل تعلم لماذا طلبت مقابلتك؟
- لا، لا أعلم.
- لقد أعجبني الجلوس معك بالأمس... فأردت الجلوس معك اليوم أيضا
- ألم تتعبي اليوم من كل ذلك المشي؟ كنت أعتقد أنك ستنامين مباشرة بعد الغداء
- لقد غفوت قليلا على إحدى الأرائك في البهو ولكن لا أنكر أن تمضية الوقت معك ممتعة جدا
فأعاد «إدوارد» رفع حاجبيه للتباهي، ضحكت «سوزان» وحاولت تقليده فلم تستطع وغلبهما الضحك حتى أمسكا بطنيهما من شدة الألم، ثم تنهدت وقالت له وهي تمسح دمعة نزلت على خدها من شدة ما ضحكت:
- حسنا ... حسنا سأدخل في الموضوع مباشرة
- تفضلي
- لقد رأيتك في الصباح وأنت تحاول قراءة تلك اللافتة الموجودة عند مدخل مكتب أبي ولاحظت الصعوبة التي واجهتك في ذلك
طأطأ «إدوارد» رأسه وقال لها بخجل:
- نعم... لقد أخبرتك بأنني لم أدخل المدرسة من قبل
- أعلم ذلك ولكنني انبهرت بقدرتك على قراءتها بشكل صحيح، ولهذا فأنا أدعوك للدخول إلى معهد خاص لتتعلم فيه القراءة والكتابة وبعض العلوم المهمة كالحساب والتاريخ وغيرها... في الحقيقة هي ليست دعوة بل هو أمر يجب أن تنفذه

- لا يمكن أن أرفض شيئا كهذا... أن أتعلم القراءة والكتابة هو أمر تمنيت حدوثه منذ زمن بعيد

- حضر نفسك إذن لأن هذا هو أول ما سنقوم به غدا... أخبرني عن صحتك الآن، هل تحسنت؟

- مجرد دوار خفيف أشعر به دائما في هذا الوقت

- هل نذهب إلى الطبيب؟

- لا أعتقد أن الأمر يحتاج طبيبا

- أخبرني إن لم يزل عنك هذا الدوار

جاء الغد... ونهضت فيه «سوزان» باكرا على غير عادتها ولكنها وجدت «إدوارد» قد نهض قبلها، نظر إليها وقال وهو يبتسم:

- تحسن ملحوظ، لقد أفقت قبل نصف ساعة عن البارحة

- اعتقدت بأنني نهضت قبلك

- لن يحدث هذا أبدا

- سنرى في الأيام المقبلة... أخبرني هل أنت مستعد

- كل الاستعداد

- لنتناول الفطور إذا ونخرج

- تناوليه أنت لأنني تناولت فطوري منذ ساعة تقريبا وبقيت أنتظرك

- غدا عندما تنهض أطرق باب غرفتي لأنهض أيضا

تناولت سوزان فطورها بسرعة وخرجا معا متجهين إلى المعهد الخاص الذي كلمته عنه بالأمس وفي الطريق حاولت أن تشرح له ما يجب عليه فعله حتى تزيل عنه التوتر... عندما وصلا أخبرتهما السكرتيرة بأن السيد «آرثر» كان هنا ليسجل «إدوارد» كما طلبت من «سوزان» أن تتركه الآن لأن الدرس الأول سيبدأ بعد قليل فوافقت وأخبرته بأنها ستعود لتصطحبه إلى البيت

دخل «إدوارد» إلى حجرة الدرس ووجدها تماما كما وصفتها له «سوزان» فاختار مكانا في نهايتها وجلس ينتظر حتى بدأ زملاءه بالدخول ليملؤوا الحجرة التي تتسع لعشرين شخصا... ألقى «إدوارد» نظرة خاطفة عليهم فوجدهم من أعمار مختلفة... يبدوا أنهم أيضا لم يكن بمقدورهم دخول المدرسة من قبل

دخل الأستاذ الذي يبدو أنه في عقده الخامس وهو يحمل حقيبة جلدية وضعها على المكتب وأخرج منها قطعتي طبشور وممسحة ثم قال لهم:

- صباح الخير... اليوم سنبدأ درسنا بسؤال سهل لننشط به عقولنا وأطلب من الشخص الذي يعرف الجواب أن يرفع يده ثم يخبرنا باسمه ويجيب... السؤال هو كالتالي... لنفرض أنك تجري في سباق ومركزك هو الثالث في الترتيب وقمت بتجاوز المتسابق الثاني فكم سيصير مركزك في السباق؟... ضحك الجميع من سهولة السؤال لدرجة أنهم لم يرفعوا أيديهم للإجابة وبدأوا يتهامسون بينهم: طبعا عندما نتجاوز المتسابق الثاني سيصبح مركزنا الأول... رفع «إدوارد» يده فطلب منه الأستاذ أن يقول اسمه ويتفضل بالإجابة على السؤال

- صباح الخير، اسمي «إدوارد» والجواب هو المركز الثاني

نظر إليه الجميع وانفجروا ضحكا بل وتعالت قهقهاتهم حتى طلب منهم الأستاذ السكوت ثم نظر إلى «إدوارد» مجددا وقال له وهو يبتسم ويضيق عينيه وكأنه يختبره مجددا:

- هل أنت متأكد من جوابك يا «إدوارد»؟ أليس المركز الأول؟

- أنا متأكد يا أستاذ، الجواب هو المركز الثاني فعندما أكون أنا في المركز الثالث وأتجاوز المتسابق الثاني فسآخذ مركزه الثاني و يأخذ هو مركزي الثالث أما المتسابق الأول فلم أتجاوزه بعد، فقط عندما أتجاوز المتسابق الأول سآخذ مكانه ليصبح هو ثانيا وأنا أولا

سكت الجميع وكأنهم اقتنعوا بإجابته وبقوا ينظرون إليه مندهشين من سرعة فطنته فقطع الأستاذ دهشتهم قائلا:

- في المرة المقبلة أريدكم جميعا بفطنة «إدوارد»... لا تتسرعوا في الإجابة مهما اعتقدتم بأن السؤال سهل... لقد كان هدفي من هذا السؤال أن أخبركم بأن الوصول للمركز الأول في أي مجال من مجالات الحياة يتطلب منكم أولا أن تتجاوزوا المراتب التي قبلكم الواحد تلو الآخر درجة بدرجة حتى تصلوا إلى ما تطمحوا إليه ففي كل درجة تتجاوزونها تكسبون منها المزيد من الخبرة...

توجه الأستاذ إلى السبورة وكتب في وسطها بخط كبير واضح «سلم النجاح» وبدأ بشرح درسه الذي استغرق ساعتين كاملتين

بعد انتهاء الدرس خرج «إدوارد» ووجد «سوزان» في انتظاره عند جانب الطريق المقابل فقطع الطريق جريا حتى وصل إليها وبدآ بالمشي معا عائدين إلى المنزل

- هل حقا جئت لانتظاري؟

- نعم

- أستطيع العودة وحيدا يا «سوزان» فلست طفلا حتى أنسى طريق العودة

نظرت إليه مبتسمة وقالت:

- هل تبحث عن الحجج حتى لا تعود معي... أم خفت أن تراك الفتيات تمشي معي فيصرفن النظر عنك

هز رأسه خجلا ولم يجبها بشيء

- أخبرني ماذا درست اليوم؟

- لا أتذكر كثيرا ماذا قال الأستاذ ولكنني أعتقد أنه كان يتكلم عن النجاح في الحياة وكيفية الوصول إليه

- كيف لا تتذكر يا «إدوارد»؟... أين كان عقلك شاردا؟

- لم يكن شاردا ولكن الدرس كان مملا جدا كان الأستاذ يبدو وكأنه غير مقتنع بما يقول... كلمنا عن الخطوات الواجب القيام بها للنجاح وكأنه شيء سهل يستطيع أي شخص القيام به فتبادر إلى ذهني سؤال محير، إذا كان الأستاذ يعرف طريق النجاح وأسرار الوصول إليه فلماذا لم ينجح هو؟ بذلته القديمة التي لبسها اليوم ونحن في بداية الأسبوع توحي بأنه لا يملك غيرها أو يملك معها بذلتين كأقصى حد، ومحفظته الجلدية التي تبدو أكبر مني عمرا لماذا لم يغيرها طول هذه المدة ولن أكلمك عن حالة حذائه... لا أعتقد أن هناك خطوات واضحة أو معينة يجب القيام بها للنجاح فوضع خطوات والتقيد بها هو خسارة في حد ذاتها... إن النجاح هو أن تغيري حالك إلى حال أفضل منه... حقا قد يختلف مفهوم النجاح من شخص لآخر كل حسب رغبته ولكن كل مفاهيمه تعني الوصول إلى غاية محددة... النجاح الذي يبقيني بحذاء ممزق وبذلة رثة لا أسميه نجاحا... منذ مدة طويلة وأنا أبحث عن هذه الخطوات لأصل إليه ومازلت أبحث عنها

هزت «سوزان» رأسها يمنة ويسرة وهي تنظر إليه وتبتسم
- لا أدري كيف تصل إلى هذه الاستنتاجات بسرعة... إذن أفهم من كلامك بأنك لم تسمع شيئا مفيدا
- بل سمعت
- ما هو؟
- لقد أخبرنا بأننا سندرس يوما واحدا فقط في الأسبوع
ضحكت «سوزان» وقالت له
- نعم، لقد نسيت أن أخبرك بذلك... لنسرع إلى البيت قبل أن يبرد الغداء
بعد الغداء طلب السيد «آرثر» من «إدوارد» مرافقته إلى مكتبه في المنزل ليتكلما حول موضوع ما... دخلا إلى المكتب وأغلق «آرثر» الباب وجلس على كرسي مكتبه وأشار لإدوارد بالجلوس على الكرسي المقابل له
- كيف حالك يا «إدوارد»
- أنا بأفضل حال يا عمي، أريد أن أشكرك على المعهد وعلى كل شيء قمت به من أجلي... أنا حقا لا أعلم كيف أرد كل هذا الدين لك
- لا تقلق يا «إدوارد» لقد فعلت ما توجب علي فعله ولا أريد أن أسمع هذه الكلمة منك مجددا وإلا غضبت منك...كما أنني أعلم بأنك تجد ذلك المعهد مملا جدا فلقد ارتدته أنا أيضا من قبل ولهذا أعدك أنك لن تبقى فيه كثيرا... فترة بقائك فيه مرتبطة بمدى سرعتك في إتقان القراءة والكتابة
- أعدك بأنني سأتقنهما بأسرع مما تتوقع
- حسنا هذا جيد... سأدخل الآن في الموضوع الذي طلبتك من أجله يا ابني... لا شك وأن «سوزان» أخبرتك بأنني مرشح لمنصب العمدة وهذا الأمر أبعدني عنها كثيرا... ولهذا فأنا أطلب منك أن تبقى إلا جانبها حتى لا تشعر بالوحدة فكما تعلم لقد تركتها والدتها قبل أن تشبع من حنانها ثم تزوجت أختها الكبرى التي كانت تملأ عليها فراغها وبقيت معها أنا فقط حتى اختارتني جمعية المحامين للترشح في الانتخابات المقبلة ودعمتني شريحة عريضة من رجال المال والسياسة فوجدت نفسي منشغلا عنها... حتى ظهرت أنت فجأة ورأيتها قد تعلقت بك كثيرا خاصة وأنها لا تعرف معنى أن يكون لديها أخ...

لهذا فكل ما أرجوه منك هو البقاء بجانبها حتى يأتي اليوم الذي أراها فيه..

لم يكمل السيد «آرثر» كلامه حتى سمع طرقا على باب مكتبه

- تفضل

دخلت «سوزان» وهي تلهث

- أبي هناك عربة في الخارج تنتظرك

ضرب السيد» آرثر» جبهته وكأنه تذكر شيئا ما

- تبا لقد نسيت الموعد... يجب أن أذهب الآن إلى المحكمة، أراكما عند العشاء

حمل السيد»آرثر» محفظته وخرج مسرعا أما «سوزان» فدخلت وجلست مكان أبيها وقالت لإدوارد

- عن ماذا كنتما تتكلمان؟

عدل «إدوارد» جلسته وجعل صوته خشنا وقال

- كلام بين رجلين

ضحكت «سوزان» وقالت له

- أعتقد أنه أوصاك بالبقاء بجانبي... إنه أبي وأعرف كيف يفكر

- نعم لقد أخبرني بأنك صغيرة جدا وتخافين من الخروج بمفردك ولا تستطيعين حماية نفسك ولهذا طلب مني مرافقتك

جمعت «سوزان» يديها وضمتهما إلى صدرها وهي تقول

- حقا؟ ألم يخبرك بأنني فزت بالمركز الأول في مسابقة المبارزة بالسيف والثالث في سباق الخيول وأن صاحبي المركز الأول والثاني كانا ضابطين في الجيش؟ ألم يخبرك بأنني تخرجت من معهد الفروسية بتقدير ممتاز

فتح «إدوارد» فمه مندهشا وهز رأسه نافيا

- لا لم يخبرنِ... متى ستعلمينني المبارزة إذا ؟

- عندما تخبرني ماذا قال لك أبي

- لا شيء... غير أنه طلب مني البقاء معك حتى يراك لا أدري ماذا يريد أن يراك فلقد دخلت قبل أن يكمل كلامه

صعقت «سوزان» وتغيرت ملامح وجهها حتى لاحظ «إدوارد» ذلك

- ما بك يا «سوزان»؟

- لا... لا شيء على الإطلاق... سأصعد لغرفتي لأرتاح قليلا
- «سوزان»
- نعم
- هل لي بطلب صغير؟
- وما هو؟
- هل يمكن أن أقوم بجولة في المدينة
- بالطبع... سنقوم بعدة جولات في المدينة وليس واحدة فقط
- لا لم تفهمِ قصدي
- وماذا تقصد؟
- أريد القيام بجولة بمفردي

فكرت «سوزان» قليلا ثم قالت له:

- موافقة... ولكن لا تبتعد كثيرا ولا تذهب إلى أماكن لم نذهب إليها سوية
- حسنا، شكرا جزيلا

في صباح اليوم التالي نهض «إدوارد» بنشاط وحماس كبيرين... تناول إفطاره وانطلق في جولته... مشى مع ذلك الشارع الطويل الذي مشي معه بصحبة «سوزان» أول مرة حتى وصل إلى ساحة السوق، نزل إليها وانعطف يسارا وبدأ يمشي ويبحث عنه... وبما أنه كان وحيدا ومسرعا هذه المرة فلم يستغرق وقتا طويلا حتى وجده... ذلك الزقاق الذي لا يشبه بقية الأزقة... بقي عالقا في ذهنه منذ أن رآه أول مرة وكان منذ البداية يبحث عن أقرب فرصة ليعود إليه خاصة بعد أن لاحظ انزعاج «سوزان» عندما رأته ينظر إليه وتذكر كيف سحبته من يده وغيرت الموضوع عندما سألها عنه... لكن حبه للبحث عن كل ما هو غامض جعله يعود إليه ليعرف ما الذي يميزه عن بقية الأزقة... ألقى نظرة على يمين المدخل وشماله يتفحصه حتى لا ينساه في طريق عودته ثم دخل إليه بخطى ثقيلة وهو يحرك رأسه في جميع الاتجاهات... كان زقاقا ضيقا وجدرانه متسخة والسكون يخيم عليه وفي كل مرة كان يجد على يمينه أو شماله أزقة فرعية أضيق من الزقاق الرئيسي يستطيع فقط شخصان المرور منها ولكنه فضل المشي مع ذلك الزقاق... كان طريق ذلك الزقاق ينحني شيئا

فشيئا حتى لما استدار خلفه لم يستطع رؤية المدخل فأكمل المشي بهدوء وسط ذلك السكون حتى سمع ضوضاء آتية من بعيد...

بدأت الضوضاء تقترب شيئا فشيئا منه حتى خرج فجأة من أحد الطرق الجانبية مجموعة من الأطفال يتسابقون ويضحكون وجوههم سوداء من شدة الأوساخ وملابسهم تظهر من أجسامهم أكثر مما تغطي حتى توقفوا مباشرة بعدما رأوه وبدأوا يتأملون في ملابسه النظيفة ويضحكون... اقترب منهم ليسألهم عن المكان المتواجد فيه فانطلقوا يجرون من جديد مبتعدين عنه وبدأ يلحق بهم بخطوات سريعة حتى بدأ يرى بيوتا على جوانب الزقاق أبوابها مفتوحة تقف عندها نسوة يتكلمن مع بعضهن البعض... بعضهن واقفات والبعض جالسات عند عتبات الأبواب... يجلسن أولادهن في حجورهن أو يقشرن الخضر حتى وصل إلى حبل علق طرفاه على جانبي الطريق المتقابلين نشرت عليه الملابس... انحنى «إدوارد» ليتخطاه وما إن رفع رأسه مجددا حتى تجمد في مكانه وعقدت الدهشة لسانه مما رأى... وجد أمامه منحدرا يعلن نهاية ذلك الزقاق وفي أسفله قرية كاملة مبنية ببيوت من الطوب وتعج بالسكان... لم يتمالك نفسه واقترب من الحافة ففقد توازنه وانزلق فيه عدة مرات حتى وصل إلى الأسفل... كان كل شيء يوحي ببدائية هؤلاء السكان... ملابسهم القديمة، بيوتهم التي بنيت بالطين والقصب وطرقاتهم الغير معبدة... تقدم «إدوارد» قليلا وسط البيوت فوجد النسوة يغسلن الملابس ويطهين الطعام في قدور كبيرة فوق النار... كلاب تجري هنا وهناك... قطعان كبيرة من الأغنام والأبقار والماعز... بقي مندهشا حتى شعر بيد تمسكه من كتفه فاستدار مفزوعا ووجد أمامه شابا في مثل سنه تقريبا ينقص أو يزيد بقليل مشدود القوام أحمر الوجه فسأله ذلك الشاب:

- كيف حالك أيها الغريب؟

ابتلع «إدوارد» كل ما في فمه من ريق وأجاب بهدوء

- بخير يا سيدي

سكت الشاب برهة من الزمن ثم انفجر ضاحكا حتى انقطعت أنفاسه... بقي «إدوارد» ينظر إليه في دهشة وحيرة حتى سكت
- نحن لسنا أسيادا أيها الغريب... نحن لا نستعمل الألقاب مثلهم ولكن أعجبني تواضعك... ناديني «نوح» هذا هو اسمي وأنت أيها الغريب ما اسمك؟
- «إدوارد»... اسمي «إدوارد»
- أمممممم... اسم ملكي، من أين أنت؟
- فوانيمور
- عرفت أنك غريب عن المكان منذ البداية... تعال معي.
مشيا معا حتى وصلا إلى صخرة كبيرة غرست في الأرض منذ مدة طويلة وطلب «نوح» من «إدوارد» الجلوس
- قلت لي أنك من «فوانيمور»
- نعم
- وكيف وصلت إلى هنا؟
- تقصد إلى المدينة أم تقصد إلى هذه القرية؟
- أقصد إلى هذه القرية
- لقد كنت في السوق أتبضع حتى تهت مع أحد الأزقة ولم أعرف الطريق فوجدت نفسي هنا
أشار «نوح» إلى المنحدر الكبير المؤدي إلى القرية وقال له باستهزاء
- ثم وصلت إلى ذلك المنحدر وسقطت منه حتى وصلت إلى هذه القرية صحيح؟
سكت «إدوارد» وواصل «نوح» كلامه:
- لا أظن ذلك يا «إدوارد»... لا تبدو من أولئك الذين يتيهون في الأزقة
- وكيف عرفت ذلك؟
- من يتيهون يظهر عليهم التعب والخوف ويسيل معهم الكثير من العرق... ولكنني أراك مرتاحا هادئا وكأنك جئت إلى هنا مباشرة
- نعم يا «نوح»... جئت إلى هنا مباشرة... لقد زرت السوق من قبل ورأيت فيه زقاقا لا يشبه بقية الأزقة فعزمت أن أعود إليه مجددا حتى أرى إلى أين سيأخذني فوجدت نفسي هنا

- وهل أنت قادم من «فوانيمور» إلى هنا من أجل السوق أم من أجل شيء آخر؟ لأنه حسب ملابسك النظيفة فأنت متواجد هنا في مكان تستطيع فيه تغيير ملابسك
اندهش «إدوارد» من ذكاء الشاب وفطنته وقال له
- إنها قصة طويلة يا «نوح»
- حسنا... ربما سأعرفها لاحقا... وأنت هل تريد أن تعرف المزيد عن هذه القرية؟
- إن أمكن ذلك
- نسمى «الساكلوديد» ونحن قبيلة ترفض الاختلاط بالبقية عاداتنا وتقاليدنا تفرض علينا الابتعاد عن المدينة وسكانها وعدم الالتزام بقوانينها لأننا نملك قوانيننا الخاصة
- ومن أين تشترون حاجياتكم من أكل ولباس وغير ذلك؟
- نحن نأكل ونلبس فقط ما تنتجه أيادينا
- وأين يدرس أطفالكم ويعالج مرضاكم ويتحاكم متخاصموكم؟
- هنا... كل شيء نقوم به هنا... شيوخ القبيلة من يحكمون بين المتخاصمين... ينتصرون للمظلوم ويقتصون من الظالم كل حسب جريمته... عجائزنا من تقوم بمعالجة مرضانا و توليد نسائنا
- ومكان دراسة أطفالكم لم تجبنِ عليه
- أطفالنا لا يدرسون يا «إدوارد»... بل نعلمهم كيف يصيرون رجالا منذ نعومة أظافرهم... نعلمهم الرعي والزراعة والمبارزة والنسوة يعلمن البنات شؤون النساء
- يعني أنكم لا تختلطون مع سكان المدينة
- ليس بدافع الحقد أو الكراهية... فنحن نلتقي معهم ونكلمهم بشكل عادي ولكن لا نتعامل معهم وهم يحترمون ذلك كما نحترم نحن قوانينهم
- وكيف تستعملون النقود إذن؟
- نحن لا نستعمل النقود في معاملاتنا بل المقايضة... نقايض السلع بأخرى فكل منا ينتج شيئا معينا قد يكون قمحا أو عدسا أو قطنا أو لحما وغيرها الكثير ثم نتبادل السلع فيما بيننا حسب حاجتنا إليها في سوق أسبوعية

- حسنا... ماذا لو...
- تكلم يا «إدوارد»
- أخشى أن يزعجك سؤالي
- لا تخف لن أنزعج
- ماذا لو أحب أحدكم فتاة من المدينة أو العكس

تغيرت ملامح «نوح» إلى الحزن فجأة وقال:

- حتى الحب... لا يجب أن نحب منهم... بل لا يجب أن نحب أبدا لأنك لست من ستختار زوجتك بل والديك من سيفعلان ذلك وإن كنت يتيما سيزوجك شيوخ القرية، في الكثير من الحالات يدخل الزواج ضمن المقايضة بالأراضي أو قطعان الحيوانات... أما من يفكر في أن يتزوج فتاة من المدينة أو يزوج ابنته بشاب من المدينة فيطرد مع عائلته وتصادر ممتلكاته من أراضي ومواشي ولا يسمح له بالعيش داخل «الساكلوديد»
- «نوح»... هل تعجبك هذه القوانين؟ هل تراها عادلة؟

ابتسم نوح قائلا:

- وهل أنتم راضون عن جميع قوانينكم؟ هل ترونها عادلة؟

هز «إدوارد» رأسه نافيا وهو يضحك ويقول:

- لا... ليست كلها عادلة ولكننا على الأقل نستطيع أن نحب من نريد
- قد تستطيعون أن تحبوا من تريدون ولكنكم لن تستطيعوا الزواج دائما بمن تريدون... قد يرفضونكم لأنكم فقراء...أو معاقون... أو حتى لأن لون بشرتكم ليس كلون بشرتهم... كم من شاب منكم أحب فتاة ورفض أهله أو أهلها أن يرتبط بها وكم من شابة منكم أحبت شابا وخافت أن تصارح أهلها حتى لا يقتلونها أو حتى خافت أن تصارحه هو بحبها له لأن العادات لا تسمح لها بذلك... آسف يا «إدوارد» ولكنني أعتقد أن عاداتنا وعاداتكم متشابهة كثيرا

سكت «إدوارد» وسرح بخياله بعيدا وظهر طيف «سوزان» بين عينيه...وبدأ يسأل نفسه ماذا لو أخبرها بأنها تعجبه؟ كيف ستكون ردة فعلها؟ ماذا لو أراد الزواج بها؟ هل سيقبل به «آرثر»؟ أبدا... لن يقبل بشاب مثله، ماذا لو «آنيا» ابنة عمه أحبت شابا فقيرا هل ستقبل به أمها «ويندي»؟... يبدو كلام «نوح» منطقيا جدا...

في الكثير من الأحيان نعتقد بأننا أحرار بعاداتنا وتقاليدنا فهي تبدو كجدران صغيرة نستطيع تخطيها بحرية ودون أن يرانا أحد ولكن سرعان ما نصطدم بجدار أكبر منها فيجبرنا أن نتوقف عنده... أو مثل الشخص الذي تدخله إلى زنزانة السجن وتفك وثاقه بالداخل... قد تتحرر يداه من ذلك الحبل الضيق الذي كان يربطهما وقد يستطيع الخروج من زنزانته إلى ساحة السجن ولكنه لن يستطيع الخروج من جدران السجن العالية

- «إدوارد»... أين شرد ذهنك؟

- حسنا... دعنا من الحب، وماذا عن التعليم؟ لماذا لا تدرسون أولادكم؟

- صديقي «إدوارد»، إن بيئتنا بيئة فلاحية لا نحتاج فيها إلى الحروف والأرقام فالوقت الذي نضيعه في تعليم الأطفال الكتابة نستغله في تعليمهم الرعي والزراعة وحلب الماعز والأبقار... تعال معي لأريك المزيد

- ماذا لو رأونا معا؟... أقصد ألن أتسبب لك بمشاكل إن رافقتك؟

- ولماذا تسبب لي المشاكل؟

- ألم تقل لي بأنكم لا تختلطون مع سكان المدن؟

ضحك «نوح» ثم نهض وأمسك يد «إدوارد» يساعده على النهوض

- لم تفهمنِ جيدا يا «إدوارد» فنحن ذاتيين أي نقوم بأعمالنا بأنفسنا، أعمالنا هي التي لا تختلط مع أعمالكم مثل الزراعة والتجارة...

- والزواج

- نعم... والزواج

انطلق الشابان يسيران معا بين بيوت القرية ويتوقفان عند كل مرة يسأل فيها «إدوارد» فيجيبه «نوح» حتى وصلا إلى خيمة جميلة جدا فأشار إليها «إدوارد» يسأل بسخرية عن السبب الذي يجعلها مميزة عن البقية

- ما بال هذه الخيمة تنتصب في الوسط ولا تشبه بقية البيوت؟ هل هي دار البلدية؟

- هنا تسكن الأم «سيفا»، أشرفت على ولادتي وولادة معظم الشباب هنا... قامت بجعل هذه الخيمة مكانا لتوليد النساء ومعالجة المرضى، كما أنها تعلم خبراتها للفتيات... هذه الخيمة هي مستشفانا... لندخل عندها فهي تحبني كثيرا

- لا يمكن أن ندخل... ماذا لو كانت تقوم بتوليد امرأة الآن أو تعالج شخصا ما

- لا تخف يا «إدوارد» فهي تعلق شارة حمراء عند مدخل الخيمة ليعرف الزائرون أنها منشغلة بامرأة أو معالجتها وإشارة زرقاء تدل أنها تعالج رجلا أما الآن فهي لا تعلق شيئا

دخل الشابان ووجدا عجوزا جالسة في ركن الخيمة تقوم بخلط الأعشاب التي انبعثت رائحتها المركزة في جميع أرجاء الخيمة... انحنى إليها «نوح» يقبل رأسها وأشار إلى «إدوارد» ليفعل مثله ففعل وما كاد يقترب منها حتى أمسكت بيده فخفق قلبه من شدة الخوف فطلبت منه أن يجلس أمامها على ركبتيه ففعل وقامت بوضع إبهامها تحت عينه وسحبتها للأسفل قليلا لتتفحص بياض عينيه ثم قالت له بهدوء

- هل ارتحت يا بني؟

- ارتحت مماذا؟

- لقد كنت غائبا عن الوعي منذ أيام بعد أن تعرض جسمك للبرد والأمطار

اندهش «إدوارد» وزادت ضربات قلبه

- وكيف عرفت ؟

- عيناك تقول ذلك يا بني... سأعطيك خلطة تستعيد بها عافيتك وتشفيك من الدوار الذي تشعر به كل مساء

لم يستطع «إدوارد» أن يتكلم وبقي مندهشا يتابع بعينيه تلك العجوز تنهض من مكانها بصعوبة وتذهب إلى خزنة صغيرة فتحتها وأخذت منها كيسا صغيرا أعطته له

- ضع منها ملعقة صغيرة في كوب الحليب عند الصباح وستشعر بالراحة بعد ثلاث أو أربع أيام

- شكرا جزيلا لك

خرج الشابان من الخيمة والدهشة تعقد لسان «إدوارد» ثم استدار إلى «نوح» يسأله

- ألا تستخدم هذه العجوز سحرا أو تستحضر جنيا يخبرها بذلك

- لا تخف يا «إدوارد» فالعجوز «سيفا» باستطاعتها أن تخبر المرأة الحامل حتى بعدد أيام حملها ويمكنها أن تعرف في وقت مبكر إذا كان الجنين الذي في بطنها ذكرا أو أنثى... تعال لأريك المزيد فأنت لم ترَ شيئا بعد

أكمل الشابان جولتهما في القرية بين «الساكلوديد» وفي كل مرة يتوقفان عند شخص ذو حرفة معينة ويحدثانه وفي كل مرة يندهش «إدوارد» من ذكائهم وفطنتهم ولم يشعرا بمرور الوقت حتى بدأت الشمس تميل إلى الغروب

- صديقي «نوح» لقد مر الوقت بسرعة ويجب أن أذهب الآن

- لكنك لم تخبرنِ كيف وصلت إلى هنا

- أعدك بأنني سأعود إليك يوما ما... وستعرف كل شيء عني لقد أعجبتني قريتكم كثيرا... إلى اللقاء

تعانقا ثم انطلق «إدوارد» إلى خارج القرية نحو المنحدر الذي نزل منه أول مرة وصعده بصعوبة حتى وصل إلى الأعلى ثم دخل في ذلك الزقاق الطويل ومشي معه حتى أخرجه إلى السوق الذي بدأ يفرغ من مرتاديه من سكان وباعة وبدأت المحلات تغلق... وصل «إدوارد» عند غروب الشمس تماما دخل البيت فوجد «سوزان» بانتظاره وما إن رأته حتى انطلقت تجري إليه وعانقته بكل أطرافها تماما كما يفعل حيوان الكوالا بالشجرة وهي تبكي

- ما بك يا «سوزان»؟

- حسبتك غادرت

- وهل هذا أمر يبكي؟ هيا انزلي وتوقفي عن هذا المزاح

ابتعدت «سوزان» وهي تمسح دموعها

- ألم أطلب منك ألا تبتعد؟ أين ذهبت؟

- «الساكلوديد»

- ماذا تقول أيها الغبي... كيف ذهبت إلى هناك بمفردك؟ ألا تعلم بأنهم خطيرون جدا

- ولكنني بخير

- لقد نجوت منهم يا «إدوارد» هؤلاء يكنون لنا الحقد والكراهية

- ولماذا تعتقدين أنهم من يكنون لكم الحقد والكراهية ؟

- لأنهم يغارون منا، نحن أغنى منهم وأفضل منهم في كل شيء... لا يملكون حتى مستشفى أو مدرسة

- بخصوص المال فهؤلاء أغنى منكم يا «سوزان»... فلو باعوا ربع قطعان مواشيهم لاشتروا المدينة وما جاورها...بخصوص التعليم فهم يعتقدون أنهم ليسوا بحاجة إليه لأن بيئتهم لا تتطلب شهادات مدرسية... أما بخصوص المستشفى فهؤلاء يملكون إمكانيات في الطب ستبهرك يوما ما

- دعنا منهم الآن ولا تخبر أبي بأنك ذهبت إلى هناك... هل أنت جائع؟

- نسيت أن أخبرك بأنهم يطهون طعاما لذيذا أيضا

- غبي... يجب ألا تعود هناك مجددا ومن اليوم فصاعدا لن تخرج من البيت بدوني

هز «إدوارد» كتفيه ثم قال لها ليستفزها أكثر

- لو علمت أنك ستبكين علي هكذا لما ذهبت إلى هناك

خجلت «سوزان» ولم تدر ما تقول فأعادت جملته التي قالها بصوت غليظ وكأنها تسخر منه ثم انصرفت وهي تطلب منه الاستحمام لأن ملابسه تنبعث منها رائحة التوابل... وضع «إدوارد» يده على كتفه يتحسس البلل الذي تركته دموع «سوزان» عليه وهو ينظر إليها تصعد الدرج إلى غرفتها

بعد أن استحم صعد إلى غرفته هو أيضا وبدأ يفكر في «سوزان» التي تبدوا وكأنها فعلا تحبه فلقد زالت شكوكه الآن... ولماذا إذا خافت أن يكون قد رحل... هل يخبرها الآن بأنه معجب بها أيضا أم ينتظر الفرصة المواتية... ولكن حتى لو وافقت عليه فستبقى أمامه عقبة أخرى وهي السيد «آرثر»... كيف سيخبره بأنه يحب ابنته ويريد الارتباط بها ؟

مرت الأيام بوتيرة سريعة وبدأت الأحداث تتطور بشكل ملحوظ فقد قام السيد «آرثر» بفتح محل للأقمشة والملابس وجعله ملكا ل»إدوارد» والذي بدأ ينافس به كبار التجار في سوق المدينة بذكائه وفطنته حتى ذاع صيته بينهم بسرعة كبيرة، بل وقام بتشغيل ثلاث عمال في محله ليساعدوه على تلبية طلبات الزبائن الكثيرة... كما تعرف على الكثير من التجار وأقام معهم علاقات وطيدة من بينهم العجوز «ألبرت» الخياط الذي يخيط عنده جميع السياسيين والأثرياء بذلاتهم والذي يجاور محله محل»إدوارد»،كان يحبه كثيرا رأى فيه مثالا عن الشاب الطموح الذي يريد تغيير ما حوله إلى الأحسن...

كانا يجلسان معا لساعات طويلة يتحدثان فيها عن المدينة وما تزخر به من خيرات كحقول التبغ والقطن والفحم كما كانا يتطرقان إلى المشاكل التي يعاني منها السكان كنقص مياه الشرب وغيرها وكان «إدوارد» يسأل كثيرا و«ألبرت» لا يمل منه... تغيرت حياته كثيرا إلى الأحسن فقد صار ينادى بين التجار بالسيد «إدوارد»... اشتهر بنزاهته في العمل وفطنته في إبرام الصفقات مع التجار خارج المدينة كما اشتهر بأعماله الخيرية وتبرعاته لدار الأيتام بل وطلب من التجار إنشاء صندوق خاص يتكفل بتلك الفئة... كانت هذه حياته خارج المنزل، أما داخله فقد كان إعجاب «سوزان» به يزيد يوما بعد يوم... فكل مرة كان يبهرها بشيء جديد... بفكرة رائعة... بهدية جميلة... بكلمة حلوة... نفس الشيء كان يحدث له... كلاهما وقعا في الحب ولكن لم يتجرأ أحد منهما أن يبوح للآخر بما يشعر به... فهو كان خائفا من «آرثر» أن يرفض أما هي فكانت تملك سببا آخر...

الشخص الوحيد الذي تستطيع أن تحكي له همومها بكل أمانة وصدق غير موجود معها الآن والطريقة الوحيدة للوصول إليه هي أن تراسله... إنها أختها «أماندا»، لطالما كانت تنصحها كثيرا وتنير الطريق أمامها فهي أكبر منها سنا وتفوقها ذكاء وخبرة في الحياة

بدأ السيد «آرثر» أيضا يلاحظ بأن هذا الفتى ليس كأقرانه من الشباب، فهو تماما كما وصفته له ابنته «سوزان» بأنه حاد الذكاء وسريع البديهة فقام بتجريبه عدة مرات وفي عدة أمور مختلفة وكانت إجابات «إدوارد» تفوق ما كان ينتظره منه بكثير، حتى أنه سأله ذات مرة ماذا كنت ستفعل من مشاريع لو كنت حاكما للمدينة فأعطاه «إدوارد» أفكارا لم يسمعها «آرثر» من أفضل السياسيين الذين احتك بهم من قبل، بل وأنه وضع تلك الأفكار كلها ضمن مخطط برنامجه الانتخابي وأخبر «إدوارد» بذلك وطلب منه ألا يتكلم بها إلا حينما يطلب منه ذلك.

من سوزان إلى أماندا

أختي أماندا

« لقد مر الكثير من الوقت على آخر زيارة لكي ولقد دفعني شوقي الكبير إلى كتابة هذه الرسالة فقد اعتدت منذ صغري على وجودك بجانبي، أنا حقا بحاجة إليك خاصة في ظل الأمور الكثيرة التي تحدث في البيت والتي يجب أن تكوني مطلعة عليها

الأمر الأول هو أبي... فكما تعلمين أنه مرشح لمنصب عمدة البلدية ويبدو أن فوزه شبه مؤكد نظرا للشعبية الكبيرة التي يحظى بها هنا وهذا ما جعله يغيب كثيرا عن البيت نظرا لارتباطاته الكثيرة فصرت لا أراه إلا نادرا

أما الأمر الثاني فهو «إدوارد» الشاب الذي لا تعرفينه طبعا... شاب جاء به أبي إلى البيت في حالة يرثى لها، فأبقيناه معنا حتى استعاد عافيته لنكتشف أنه يتيم الأبوين فرفض أبي أن يتركه يغادر المنزل وطلب منه العيش معنا... شاب وسيم ذو أخلاق مثالية لم أرَ مثله أبدا... المشكلة هي أنني وقعت في شباكه... أحببته بشكل جنوني لا يصدق، فمنذ أن رأيته ممددا على فراش المرض أول مرة... شعرت أنه أنا في جسد آخر...له شخصية لا مثيل لها... أبدا ليس كالشباب الذين أعرفهم حتى أنني عندما أسترق النظر إليه أتساءل إن كان من عالمنا، حتما ستقولين أنني جننت ولكن لو وقفت أمامه وكلمك فقط بضع كلمات ستشعرين بما أشعر به الآن، أسوء ما في الأمر أنني أعلم أنه ليس لي ولن يكون لي حتى لو أحبني هو أيضا وأنت تعرفين السبب جيدا

أختي «أماندا» قلبي يحترق الآن ولا أجد قلبا ألجأ إليه غير قلبك فهل عجلتي بزيارتنا في أقرب الآجال علك تساعديني في إيجاد حل»

-أختك «سوزان»-

كان «إدوارد» في حديقة البيت يقوم بحفر حفر صغيرة لغرس بعض أشجار الزينة نازعا قميصه والعرق يتصبب على جسده مما أعطى لعضلاته المفتولة لمعانا ملفتا... وكانت من نافذة غرفتها تراقبه، تراقب كل حركة يقوم بها... عندما يضرب الأرض بالمعول فتتطاير قطرات العرق من شعره الذهبي... عندما يمسح جبينه بيديه... وعندما يشرب من قارورة الماء ويفرغ ما تبقى منها على شعره

كانت تراقبه وهي تحترق من الداخل، ليس صعبا أن تصارحه بحبها، لكن أمرا عظيما يمنعها، لهذا كانت تشاهده وتكتفي بمخاطبة نفسها فقط

- لماذا جئت متأخرا يا «إدوارد»؟... لماذا لم تهرب من ذاك المنزل قبل ذاك اليوم؟

سمعت طرقا على الباب تبعه صوت والدها يستأذنها الدخول

- تفضل يا أبي

- كيف حال صغيرتي؟

- أنا بخير يا أبي.

- عيناك حمراوتان هل كنت تبكين؟

- لا، أبدا..ولماذا أبكي؟ لقد فتحت النافذة لكن حبوب الطلع المتطايرة من الأزهار سببت لي حرقة في عيني ففركتها حتى احمرت

- حسنا..جئت لأخبرك بأنني سأقيم مأدبة عشاء على شرف أعضاء مجلس البلدية وستحضر فيه شخصيات مهمة وزوجاتهم كما سأوجه الدعوة لأختك وزوجها، أرجو أن تخبري «إدوارد» بذلك

طارت «سوزان» من شدة الفرح عندما علمت أنها سترى أختها قريبا فهي الوحيدة التي تستطيع مساعدتها في إيجاد حل للمعضلة التي تمر بها

- حسنا يا أبي سأنزل حالا لأخبره

- آه تذكرت، سأدعو «جاكوب» ووالديه أيضا

عندما سمعت «سوزان» ذلك الاسم شعرت بأن قلبها توقف عن النبض وتغيرت ملامح وجهها فجأة من فرحة مستبشرة إلى مندهشة خائفة وطأطأت برأسها وقالت بهدوء: حسنا يا أبي.

عند المساء صعدت «سوزان» إلى غرفة «إدوارد» ودخلت بعد الاستئذان ووجدته مستلقيا على فراشه بعد الاستحمام

- مساء الخير يا «إدوارد»

- مساء الأنوار يا «سوزان» كيف حالك؟

- بخير... لقد أردت أن أكلمك هذا الصباح ولكنك كنت منشغلا بالعمل في الحديقة، لقد قمت بتزيينها بطريقة رائعة سيندهش منها الضيوف

- ضيوف؟

- نعم... وهو الموضوع الذي أردت أن أكلمك فيه، إن أبي يعتزم أن يقيم عشاءا وسيكون المدعوون من رجال السياسة والمال في المدينة وحتى المدن المجاورة والخبر الأجمل أن «أماندا» ستكون من المدعوين وستكون فرصة لأعرفكما بعضكما البعض كما أريد أن أخبرك بأن أبي يعتمد كثيرا على هذا الحفل لأنه سيساعده كثيرا في حملته الانتخابية ولهذا طلب منا أن نحضر أنفسنا جيدا

- حسنا سأكون عند حسن الظن ولكن عندي طلب بسيط

- وما هو؟

- تعلمين أنه مضى على وجودي معكم قرابة الأربعة أشهر ولا أخفي عنك أنني اشتقت إلى «آنيا» كثيرا ولا يمر علي يوم أو ليلة إلاّ وأفكر فيها وأعلم جيدا أنها تفعل ذلك أيضا ولكنني في نفس الوقت لا أستطيع الذهاب لزيارتها فهل تملكين طريقة أو فكرة تمكنني من التواصل معها دون أن ألقاها؟

- لماذا لا تكتب لها رسالة؟

- رسالة ؟

- نعم ... هل تعرف عنوان البيت؟

خجل قليلا «إدوارد» وقال لها: أعرف العنوان طبعا ولكن كما تعلمين أن خطي سيء للغاية، كما أخشى أن تصل الرسالة إلى والدتها أو عمي فيمنعان وصولها إليها

- لا تقلق بشأن الكتابة فأنا من ستتولى ذلك ولكن يجب أن نفكر بطريقة تجعل الرسالة تصل إليها مباشرة

نظر بعينيه إلى الأرض وفكر برهة من الزمن ثم رفع رأسه وقال لها: أعتقد أنني سأكلف شخصا آخر بكتابتها حتى لا أزعجك... شكرا لك على الفكرة
فهمت «سوزان» من كلامه أنه لا يريدها أن تعرف محتواها فربما سيذكر أشياء خاصة أو عائلية فلم تحرجه بطلب كتابتها مجددا

كان «إدوارد» أنيقا جدا... لبس بذلة سوداء وقام بتسريح شعره وبقي واقفا عند ركن من أركان قاعة الضيوف...كانت الفتيات يسترقن النظر إليه بدهشة ويتأملن وسامته وأناقته فكثيرا ما سمعن بهذا الفتى الغريب الذي قلب السوق بذكائه ولكن لم تكن لهن الفرصة لرؤيته أمامهن حتى اليوم، أما هو فقد كان يتأمل في وجوه المدعوين الواحد تلو الآخر... هؤلاء الذين يسمون أنفسهم طبقة «راقية»... ذلك العجوز «جون» واقف هناك يشارف على السابعة والسبعين عاما ويتمنى ألا تخونه ركبتاه اليوم ويبقى واقفا أمام الجميع أطول فترة ممكنة بدون عكازه وتلك الشابة الجميلة بجانبه تدعى «سارة» ليست حفيدته ولا حتى ابنته بل هي زوجته التي يتباهى بها أمام الحضور ويخبرهم في كل فرصة مواتية أنها تحبه وتهتم به بالرغم من أن فارق السن بينهما أربع وخمسون سنة... كيف يعقل هذا؟... معارفه لا يتعجبون من الأمر لأنه يملك حقل تبغ يدر عليه أموالا طائلة وهو التفكير السليم بالنسبة لفتاة في الثالثة والعشرين من عمرها ويتيمة الأب ولا تجد ما تعيل به أمها وإخوتها... على النقيض هناك... في تلك الزاوية، تلك العجوز السمينة الدائمة الابتسامة... هي لا تبتسم فرحا وسعادة بل فقط ليرى الحضور أسنانها الذهبية وفي نفس الوقت تحاول أن تخفي ترهل الجلد في عضلات ذراعيها بردائها الطويل أما تجاعيد الوجه فقد استطاعت بجهد كبير إخفاء بعضها بمواد التجميل... ذلك الشاب الوسيم الذي يحمل لها كأسها يدعى»سلفستر» وهو زوجها الذي تزوجته بعد وفاة زوجها الأول والذي ورثت منه الكثير... لا عجب أن يتزوج بهذه العجوز لثرائها فهو الابن الوحيد عند والديه الفقيرين كما أن لديه أختين معاقتين كما أنه لا عجب أيضا أن تراه ينظر إلى «سارة» زوجة «جون» بعينين ذابلتين وتبادله بنفس النظرات ولسان حالهما

يقول «نحن لبعضنا البعض ولسنا لهؤلاء العجائز... تلك الفتاة التي تصعد السلالم مسرعة هي الآنسة «كاتي» ابنة السيد «دافيد» يلحق بها ذاك الشاب لأنها أشارت له باللحاق بها... ذلك الشاب تكلم تقريبا مع نصف فتيات الحفل وقام بغمز النصف الباقي

ما هذا العالم القذر؟ كيف يسمون أنفسهم طبقة راقية؟ أين الرقي من كل هذا الدنس؟ هؤلاء يجب أن يعيشوا في الأسفل... في الأرض السابعة... بجانب الشيطان والشر والحمم البركانية... ذلك هو مكانهم الطبيعي... كلما زادوا ثراء زاد السكان البسطاء فقرا وجوعا

في وسط هذا الاشمئزاز لمح «سوزان» من بعيد ترتدي ثوبا أبيضا حريريا بدت فيه كالملاك، خطفت الأضواء من الجميع بجمالها حتى صار كل الرجال يسترقون النظر إليها... حتى العجوز «جون»... ولكن لم يتجرأ أحد منهم أن يقترب منها أو يكلمها، لمحته هي أيضا فجاءت إليه مع أختها «أماندا».

- أين كنت تخبئ هذه الوسامة يا «إدوارد»؟

- خبأتها ليوم جميل كهذا

- (بعد ضحكة صغيرة) هذه أختي «أماندا»

انحنى «إدوارد» وقبل يد «أماندا»

- سيدتي... لقد حدثتني عنك «سوزان» وحاولت في الكثير من المرات أن تصفك لي ولكنني أعتقد أن الوصف خانها

- ولماذا برأيك خانها الوصف؟

- لأنك أجمل بكثير مما وصفتك

ضربته «سوزان» على كتفه وهي تضحك

- شكرا لك يا «إدوارد» هذا لطف منك، من فضلك أخبرني كيف وجدت بيتنا؟ وهل تعتني بك «سوزان»؟ حتى أوبخها إن لم تفعل

- سيدتي «أماندا»...

- أرجوك يا «إدوارد»، مناداتك لي بسيدتي تجعلني أشعر وكأنني عجوز وأنا أكبرك بعامين فقط، فلتنادني «أماندا» فقط

- (بابتسامة) كما تشائين يا «أماندا»،(طأطأ برأسه إلى الأسفل وهو محافظ على تلك الابتسامة) لا أعلم إذا كانت «سوزان» أخبرتك بقصتي أم لا ولكنني أريد أن أخبرك بأنك تملكين أعظم عائلة في الكون... فمنذ مجيئي أو بالأحرى وصولي إلى هذا البيت لم أشعر أبدا بأنني شخص غريب لقد غيرت عائلتك حياتي كليا وبطريقة لم أرسمها حتى في أجمل أحلامي... لهذا وعدت نفسي بأن أخدم هذا البيت بكل ما أملك من طاقة خاصة هذه الشقية وأشار بإصبعه إلى «سوزان» التي ضربته على كتفه مرة أخرى

- كان أبي بحاجة لرجل يقف معه ويبدو أنه سعيدا جدا بقدومك... تبدو إنسانا عظيما يا «إدوارد» تماما كما وصفتك لي «سوزان»... أشعر وكأنك ستصبح ذا شأن كبير في المستقبل... إن احتجت لأي مساعدة من أي نوع اطلبها مني في الحال

احمر وجه «إدوارد» من الخجل وحاول أن يهرب بعينيه بعيدا فلمح ذلك الشاب الذي لحق ب «كاتي» في السلالم ذلك الغريب الذي حاول العبث مع جميع الفتيات المدعوات... لقد كان ينظر إليه والشرر يخرج من عينيه غضبا... فشعر «إدوارد» بغيرة ذلك الشاب الذي على ما يبدو أنه انزعج من وقوفه مع أجمل فتاتين في الحفل... فرد «إدوارد» على نظراته بابتسامة ساخرة

اجتمع كبار المدينة من أغنيائها وساستها في ركن من أركان البيت وحولهم بقية المدعوين والكل يتكلم حول الوضع في المدينة والأمور الواجب إصلاحها والكل يبدي برأيه في الموضوع... يتفقون على فكرة ولا يتفقون على أخرى... من بين هؤلاء كان «إدوارد» واقفا ينصت لهم بهدوء ومعه «سوزان» و»أماندا» وزوجها... كان يبتسم سخرية من فكرة غبية ويومئ برأسه على فكرة جيدة ويحاور «سوزان» على فكرة أخرى حتى نطق ذلك الشاب العابث الغاضب من «إدوارد» أراد اغتنام الفرصة ليقوم بإحراجه أمام الجميع فصاح بصوت أعلى من أصواتهم ليجذب انتباههم

- «إدوارد» ... لقد لبثت معنا في هذه المدينة مدة لا بأس بها واستطعت بذكائك كما يقولون أن تأخذ مكانة كبيرة في السوق كما أخبرنا السيد «آرثر» بأنك أعطيته أفكارا عظيمة ستجعل مدينتنا هي الأولى في البلاد...

إذن حسب رأيك ما هي المشاريع التي يمكن أن نعتمد عليها للنهوض بهذه المدينة ؟

سكت الجميع وأداروا رؤوسهم حول «إدوارد» وبدأوا يتهامسون بينهم... أما «سوزان» و»أماندا» فقد احمرت وجوههم خجلا فهم يعلمون أن «إدوارد» لا يعرف شيئا عن المدينة وسياستها

بخطى ثابتة وهدوء تام تقدم «إدوارد» بين الجميع وهو يغلق أزرار سترته والكل ينظر إليه حتى وصل إلى السلالم فصعد الدرجة الأولى والثانية ثم استدار إلى الجميع فوجد نفسه مرتفعا عنهم قليلا فخاطبهم قائلا:

- أيها السادة الحضور... إنه لشرف عظيم لي أن أبدي رأيي المتواضع أمام حضرتكم وأنا الغريب بينكم وأنتم أدرى وأعلم بكم وبمدينتكم وحوائجها... أيها السادة، نعلم أننا في فترة انتخابات ودائما ما يلجأ فيها المرشحون إلى تقديم وعود للسكان لجذبهم إلى صناديقهم أكثر وأكثر فتكون وعودهم عبارة عن مشاريع يعتقد الجميع أنها جيدة للمكان وإن أكثر ما يعجب السكان هو تلك المشاريع الصغيرة الآنية النتائج أي بمعنى آخر أن السكان يحبون رؤية نتائج المشاريع التي وعودهم بها بسرعة كبيرة وهم لا يعلمون أن تلك المشاريع الصغيرة تقدم حلولا مؤقتة فقط وهكذا يستفيد السكان لبعض الوقت فقط ويستفيد المرشحون من أصواتهم أيضا...لكن الحقيقة أن المشاريع الكبيرة وحدها من تقدم حلولا دائمة حتى وإن كان وقت إنجازها يستغرق وقتا طويلا لهذا فلن يجازف أحدا من المرشحين ليعد الناس بمثل هذه المشاريع... وعليه فحملة السيد «آرثر» ستكون مغايرة لجميع الحملات الانتخابية التي عهدتموها، فنحن نعتقد أنه من الصواب أن نتجه إلى جبلي «أوزفو» و»فيرتا» العظيمين ونبني بينهما سدا مائيا كبيرا نخرج منه سواقي لجميع الحقول التي أمامه وننظم طريقة حصولها على الماء بالتساوي ونفرض ضريبة على أصحاب الحقول ثم نجعل تلك السواقي تمر بجانب طواحين الحبوب لتدور بتيارها وهكذا نكون قد وفرنا مياه الشرب لسكان المدينة ومياه الري للحقول على مدار الموسم ودخلا دائما لصندوق البلدية وابتكرنا أيضا طريقة لتدوير طواحين الحبوب دون اللجوء لجهد الحيوانات كل هذا فقط ببناء السد المائي...

بعدها نأخذ فؤوسنا ونتجه إلى جبل «فارمو» وجميعنا يعلم ماذا يوجد بداخله من فحم حجري، فنقوم بحفر ثلاث مناجم... المنجم الأول لا نستعمله ونبقيه احتياطيا والثاني يكون موجها فقط لحاجيات السكان في المدينة أما الثالث فيكون موجها للمدن الشمالية الباردة فهم بحاجة إلى الفحم لهذا سنبيعه لهم بسعر معقول حتى نجذب إلينا أكبر عدد من المدن وهكذا نكون قد وفرنا مناصب عمل للكثير من السكان ووفرنا لهم الفحم في السوق كما سنوفر أيضا مداخيل كبيرة للبلدية تساعدنا فيما بعد في إنشاء عدة مشاريع أخرى... كما أن هناك أمرا آخر يجب أن نركز عليه وهو الاستفادة من الزراعة فحقول القطن المحيطة بالمدينة كنز ثمين لم نعرف كيفية استغلاله بالشكل المطلوب... تنتج تلك الحقول أضعاف ما تنتجه مدينة «مارنيفور» ولكننا نبيعه لهم مادة خام ثم نشتري منهم القماش بسعر باهظ... لماذا إذن لا نقوم ببناء مصنع للنسيج هنا نوفر به حاجيات سوقنا ونبيع الفائض للمدن المجاورة أيضا... الأمر لا يتعلق بالقطن فقط بل بالتبغ أيضا وحتى الفواكه التي نستطيع تجفيفها وبيعها في غير مواسمها...هذه هي المشاريع الكبيرة التي سيقوم بها السيد «آرثر» في حال فوزه بالانتخابات... أما المشاريع الصغيرة فستكون عبارة عن توسعة السوق لجذب العديد من تجار المدن المجاورة ونبني لهم أيضا نزلا صغيرا خاصا بهم وبمن يتخذون من مدينتنا منطقة عبور ليبيتوا فيه مقابل دفع رسوم وتكون عوائده أيضا لميزانية البلدية.

أيها السادة الحضور... إن هذه المشاريع لن تنجز بين ليلة وضحاها، كما أن ميزانية البلدية لن تستطيع التكفل بها على نفقتها ولهذا فهذه المشاريع تعول كثيرا عليكم لتستثمروا أموالكم فيها والفائدة ستعود عليكم وعلى السكان ولقد قطع السيد «آرثر» وعدا على نفسه بالمساهمة فيها أيضا من ماله الخاص

وشكرا جزيلا لكم على الحضور والاستماع

بعدما أنهى «إدوارد» كلامه عم صمت رهيب بين الحضور وأخذوا يحدقون إلى كتلة الذكاء الواقفة أمامهم... لا أحد منهم كان ينتظر خطابا كهذا وخاصة من شخص غريب على مدينتهم سمع الجميع قصته بأنهم وجدوه مغشيا عليه من الجوع والتعب على جانب طريق غابي... تقدم أحد الخدم وصفق له وهو ينظر إليه فاتحا فمه وتبعه شخص آخر من المدعوين وآخر وآخر حتى دوت القاعة بالتصفيق الحار... اندهشت «أماندا» لما سمعته وعانقت أباها بحرارة أما «سوزان» فقد لمعت عيناها فخرا وقالت بصوت خافت: أحبك يا «إدوارد»

اقترب رجال المال والسياسة من «إدوارد» و»آرثر» وبدأوا يتناقشون حول تلك المشاريع وأبدى كل منهم موافقته على المساهمة في بنائها... و»إدوارد» يناقش هذا ويكلم ذاك ويشرح للآخر حتى لمح «سوزان» في مكان منعزل قليلا عن الجميع مع ذلك الشاب الذي حاول أن يهينه، كان يكلمها وعروق رقبته تكاد تنفجر ثم شمر عن ذراعه ليريها جرحا قديما عليه يبدو كضربة سيف أو ما شابه، ثم بدأ وكأنه يصرخ في وجهها... انزعج «إدوارد» منه كثيرا واتجه إليهما ولما وصل سأل «سوزان» وهو ينظر إلى عيني ذلك الشاب والشرر يتطاير منهما

- «سوزان» من هذا الشاب الرائع الذي تقفين معه؟ يحصل لي الشرف لأتعرف به بعد

انحنت برأسها قليلا ونظرت إلى الأرض وقالت له:

- إنه «جاكوب»

- كيف يقربك؟

- خطيبي

الفصل الثالث

من إدوارد إلى آنيا

«آنيا»

«لقد ترددت كثيرا قبل أن أكتب لك هذه الرسالة والتي فضلت أن أكتبها بخط يدي فلولاك ما تعلمت الكتابة والقراءة... لقد قررت كتابتها لأزيل عنك القلق لأنها أول مرة أغادر فيها البيت .

ما حز في نفسي وآلمني كثيرا ليس الطريقة التي طردتني بها والدتك أمام جميع السكان بل هو الخروج من البيت دون أن أراك للمرة الأخيرة و أودعك، فقد شاء القدر أن أغادر البيت دون رجعة نظرا لكل ما عانيته من ذل وإهانة وأنت أعلم بذلك... لقد كنت أعلم جيدا أن اليوم الذي ستطردنني فيه آت لا محالة فهي تخطط لإخراجي منه منذ مدة طويلة لسبب لا يعلمه إلا أنا وهي وستعرفينه أنت أيضا عاجلا أم آجلا فالحقيقة مهما طالت لابد لها من الظهور... أريدك أن تعلمي أن سبب بقائي معكم وصبري على كل ذلك كان بسبب طلب والدتي لي عندما كنت صغيرا بأن أطيع عمي «كارتر» وأضعه في مرتبة والدي...

لقد كتبت لك أيضا لأطمئنك على حالي وأخبرك بأن القدر الذي أخرجني من البيت هو نفسه الذي أخذني إلى حضن عائلة راقية محافظة تعرف تماما الفرق بين البشر والبقر... التقطوني جسدا مريضا شبه ميت فأحضروا لي أفضل الأطباء لمعالجتي واستعادة عافيتي وهو ما حدث وكان طلبهم الوحيد أن أعيش معهم فما كان مني إلا القبول ووعدت نفسي بأن أقف إلى جانبهم كما وقفوا إلى جانبي... فزادوني كرما بأن فتحوا لي محلا لبيع الأقمشة لأعمل فيه ولا أشعر بأنني عالة عليهم فتغيرت أحوالي عندهم من الحسن إلى الأحسن وصرت بفضلهم رجلا ذو مكانة كبيرة في سوق القماش رغم صغر سني...

أريد أيضا أن أخبرك عن ابنتهم «سوزان» التي وقعت في حبها منذ أن رأيتها أول مرة ولكن خوفي وخجلي منعاني من مصارحتها بالأمر ولهذا فأنا أنتظر الحفل الذي سيقيمه والدها الشهر المقبل لأخبرها بذلك وأطلب يدها مباشرة من والدها ومستغلا في ذلك وجود أختها الكبرى التي ستكون من المدعوين ...

في الأخير يا أختي أعدك بأنني لن أتوقف عن الكتابة لك وسأخبرك في حال ما إذا قبلت بي «سوزان» زوجا لها وأعتذر منك على عدم تركي لعنواني وأرجو منك ألا تخبري أحدا من عائلتك بأنني أرسلت لك هذه الرسالة أما بخصوص الرسائل القادمة فستصلك كما وصلتك هذه الرسالة.

-«إدوارد»-

أكملت آنيا قراءة الرسالة ووضعتها على طاولة بجانب سريرها ومسحت دمعة نزلت تجري على خدها سرعان ما نزلت بعدها دمعات أخرى فلم تستطع أن توقفهم جميعا... لا تدري هل هي سعيدة من أجله لأنه بخير وقد وجد من يحسن إليه ووجد أيضا الفتاة التي يحب، أم هي حزينة لأنه لا يعلم بأن والدها مات مقتولا وأمها شل نصفها وفقدت القدرة على الحركة والكلام وهي لا تزال طريحة الفراش حزنا على زوجها... لم يترك لها «إدوارد» حتى عنوانه كي تخبره بذلك وتطلب منه الوقوف بجانبها كما كان يفعل دائما... أرادت أن تخبره بأنها علمت أنه لم يقتل تلك البقرة ولا دخل له في ذلك لا من بعيد ولا من قريب فقد أخبرها الطبيب صديق والدها بأن أمها من طلبت منه أن يعطيها سما يقتلها به لكي تجد ذريعة لطرده وطلبت منه أيضا أن يأتي إلى الإسطبل ليقول أمام الجميع بأن سبب موتها هو الفطر السام حتى تلتصق التهمة به بشكل أكيد، لكنه بعد وفاة والدها وسقوط أمها مريضة أبى إلا أن يخبرها ليريح ضميره... أرادت أن تخبره بأنها باعت البقرتين المتبقيتين وقامت بتأجير الإسطبل بسعر زهيد جدا... أرادت أن تخبره بأن المال الذي تركه والدها في البيت بدأ ينفذ شيئا فشيئا وصار كل طعامهم عبارة عن خبز وتفاح رديء... ملأت «آنيا» رئتيها بالهواء ثم أخرجت زفيرا طويلا قالت بعده بصوت مسموع:

- أين أنت يا «إدوارد»؟

أعادت «آنيا» حمل تلك الرسالة ثم طوتها برفق وقبلتها ووضعتها داخل خزنة ملابسها ونزلت إلى الأسفل لتطعم والدتها.

كانت الأوضاع في مدينة «فوانيمور» تزداد سوءا فسوءا... ارتفاع حاد في أسعار القمح والبقوليات بعد احتكار كبار التجار لها والذين يتكون منهم مجلس البلدية فلا أحد من السكان باستطاعته محاسبتهم ومعاتبتهم على تجاوزاتهم وفسادهم... كان لديهم هوس كبير بالاستيلاء على عقارات السكان ولكن بطرق قانونية فبدأوا بفرض ضريبتين خياليتين على الفلاحين سموهما ضريبتي الأرض والمحصول... الضريبة الأولى يدفعها كل من يمتلك أرضا فلاحية حتى وإن لم يكن يزرع فيها شيئا أما الثانية فيدفعها الفلاحون حسب محصولهم وكميته وأولئك الذين لا يدفعون تصادر منهم أراضيهم وتصبح على الورق تابعة للبلدية ولكن في الحقيقة أعضاء مجلس البلدية من يستغلونها... بدأ الكثير من الشباب بالهجرة إلى مناطق أخرى تاركين خلفهم عائلاتهم تقاتل الجوع كما أعطوا بذلك فرصة كبيرة لهؤلاء التجار بفعل ما يحلو لهم دون وجود أي مقاومة فزاد غناهم وزاد معه فقر السكان... كان كل من يتكلم عنهم يسجن أو يدفع غرامة مالية ومن لا يملك المال يحاكم بالخدمة الاجتماعية وهي في الحقيقة الخدمة في أراضيهم الفلاحية... ولما رأوا حاجة السكان إلى المال فتحوا مكتبا لتقديم القروض مع احتساب زيادة عند إرجاعه حسب المبلغ المستدان والمهلة الممنوحة لصاحب القرض شرط أن يستعمل المال لخدمة الأرض أو لشراء سكن أو التجارة بسلعة ما ورهن ما يملك من أرض أو حيوانات ومن لا يستطيع إرجاع المال كاملا تصادر سلعته أو محصوله أو الرهن الذي قدمه وهكذا ضلوا يستغلون حاجة الناس لإغراقهم بالديون ثم الحصول على فوائد منها أو مصادرة أملاكهم... كان بيت «كارتر» من البيوت التي أسالت لعابهم وكان العمدة دائم التربص به خاصة بعد علمه بحاجة ابنته وزوجته إلى المال فكان دائما ما يحاول إغراء «آنيا» بالمال لبيعه أو استبداله ببيت صغير ويزيدها عليه المال ولكن «آنيا» كانت دائما ما ترفض... حاول معها بجميع الأساليب ولكنها كانت تفضل الموت جوعا على أن تترك المنزل حتى وصلت إلى حد لا يطاق من الفقر والجوع وحاجة والدتها للدواء... فكرت «آنيا» كثيرا وكثيرا في حل يخرجها من الأزمة التي فيها حتى جاءتها فكرة لم تجد حلا آخر غير القيام بها فذهبت إلى بيت العمدة تطرق بابه

- أهلا بك يا بنيتي
- عذرا سيدي لأنني جئتك إلى البيت وفي يوم عطلتك
- لا حاجة للاعتذار يا ابنتي فكما تعلمين بيتي مفتوح لجميع السكان تماما مثل مكتبي فهدفي هو رضاكم
- نعم... ونحن نقدر لك ذلك
- ما حاجتك يا ابنتي؟
- لقد جئت لأكلمك بشأن البيت... أقصد بيتنا

اتسعت عيناه وبلع ريقه حتى لاحظت «آنيا» ذلك ثم أمسكها من ذراعها وسحبها إلى الداخل وهو يلتفت ما إن رآه أحد ما

- لماذا مازلت واقفة هنا يا «آنيا» تفضلي إلى الداخل لنشرب فنجان قهوة ونتحدث بهدوء

أخذها إلى أريكة تتوسط غرفة الضيوف وطلب من زوجته أن تعد قهوة رائعة لضيفتهم فهي ليست ككل الضيوف

- نعم يا ابنتي ماذا كنت تقولين؟
- لقد جئت لأبيعك المنزل ولكن لدي شرطان
- سأوافق على كل شروطك يا «آنيا» فهدفي ليس أخذ منزلكم بل مساعدتكم ماديا فأنا أعلم أنكم بحاجة إلى المال منذ وفاة صديقي «كارتر»... لقد كان شخصا را...

قطعت «آنيا» كلامه لعلمها بأنه يكذب

- شرطي الأول هو أن نكتب في العقد أنك لن تبيع المنزل مجددا إلا بموافقتي والثاني يمكنني استعادته منك إذا أضفت على المبلغ الذي ستشتريه به ربعه
- ما هذه الشروط يا «آنيا»؟ أنت تعلمين أن هذا البيت الذي أسكنه الآن ملك لدار البلدية وستنتهي عهدتي قريبا وسأصبح مجبرا على مغادرته فلهذا أنا أبحث عن بيت أسكن فيه بقية حياتي فلا يمكنني بيعه بعد ذلك، أما بخصوص الشرط الثاني فيجب أن أستشير زوجتي فيه

بقيت «آنيا» جالسة تنتظر بينما كان العمدة يكلم زوجته في المطبخ حول الشرط الثاني

- لقد شرطت علي أن لا أبيع المنزل إلا بموافقتها
- حسنا... اقبل به فنحن لن نبيعه بأي حال
- ولكنها شرطت شرطا آخر أصعب من الأول
- وما هو؟
- طلبت مني أن نضع في عقد البيع بندا يسمح لها باستعادته في حال ما إذا أرادت ذلك مع دفع زيادة تقدر بربع مبلغ الشراء
- لا أعتقد أنها تستطيع استرجاعه فهي لن تملك المال الكافي... استعملت هذين الشرطين فقط لتريح ضميرها من بيع منزل والدها كما تريد أن ترينا بأنها فتاة ناضجة وذكية وتعرف كيف تتصرف... أظن أنه من الجيد أن تقبل وإلا سبقنا إليه شخص آخر

عاد العمدة إلى «آنيا» ومعه زوجته تحمل القهوة وضعتها أمامها

- لقد فكرت أنا وزوجتي في شروطك ولم نجد حلا آخر غير مساعدتك وشراء المنزل منك فكم تريدين سعرا له
- سعر المنزل لا يقل عن ألف وحدة كما تعلم ولكن كوني فتاة ولا تعرف هذه الأمور فأنا أطلب مساعدتك في إيجاد بيت لنا من غرفة ومطبخ لا يتجاوز الثلاثمائة وحدة وتزيدني سبعمائة وحدة... وإذا أردت استرجاع البيت فيجب أن أدفع لك ألفا ومائتان وخمسون
- حسنا هذا سهل... أعرف الكثير من البيوت التي تتكون من غرفة ومطبخ يريد أصحابها بيعها فهي تتسع لكما الاثنتين لنشرب القهوة الآن وسنوقع عقد الشراء غدا وستبقين في البيت حتى نجد منزلا لكما.

مرت الأيام ورحلت «آنيا» ووالدتها إلى بيت آخر وكانت كل يوم تمر بجانب بيتهم القديم تشعر بأن شيئا ما يخنقها.

بمرور الأيام في مدينة «فوانيمور» صار هؤلاء الذين اقترضوا المال من أجل شراء سكنات مجبرين على إرجاع المال إلى مكاتب القرض أو تصادر منهم تلك البيوت التي اشتروها فلم يجدوا حلا غير بيعها بضعف ثمنها لشراء منازل أصغر منها وإرجاع المال إلى مكاتب القرض وهو ما نتج عنه زيادة في أسعار البيوت... بدأت تلك الزيادة تزيد شيئا فشيئا حتى قارب سعر البيت في أقل

من ثلاثة أشهر إلى ضعف ثمنه عند الشراء... حتى البيوت الصغيرة والأكواخ لم تسلم من هذه الزيادة

في مدينة «إبتادور» كان «إدوارد» جالسا عند محله يتكلم مع العجوز «ألبرت» حتى وقف عليهما شاب يبدو عليه التعب فسأله «ألبرت»

- تفضل يا بني، ماذا تريد؟

- هل يمكن أن تساعدني في إيجاد عمل يا سيدي؟

- أنا آسف يا بني فأنا أملك من يساعدني... حاول أن تبحث في بقية المحلات ربما تجد من هم بحاجة إلى شاب مثلك

- شكرا لك يا سيدي

كان»إدوارد» ينظر إلى ذلك الشاب باهتمام وكأنه يعرف لهجته التي تكلم به ثم سرعان ما وقف وناداه

- تعال أيها الشاب... ما اسمك؟

- اسمي «ألفريد»

- ومن أين جئت يا «ألفريد»

- من «فوانيمور»

نظر «إدوارد» إلى العجوز «ألبرت» وقال له:

- ربما أحتاج مساعدا آخر في دكاني... تعال يا «ألفريد» معي إلى الداخل

أدخله المحل وأجلسه وطلب من مساعده أن يحضر له ماءً ففعل ثم أتى بكرسي وجلس أمامه

- ألم تعرفني يا «ألفريد»؟

تفحصه «ألفريد» بعينيه ثم هز رأسه نافيا

- ألم تسمع بشخص يسمى «إدوارد» في «فوانيمور»

- هل أنت هو «إدوارد»؟ ذلك الشاب الذي طردته زوجة عمه بعد أن سممت البقرة وألصقت التهمة عليه

- نعم أنا هو... ولكن كيف عرفت بأنها سممت البقرة؟

- لقد اعترف الطبيب بأنه هو من سممها بناءً على طلبها لكي تجد حجة وتطردك من البيت... جميع من في المدينة سمعوا بقصتك وتضامنوا معك لكن يبدو أن السماء عاقبتها بعد فعلتها تلك.

- كيف عاقبتها السماء ؟

- ألم تسمع بأنها صارت مشلولة؟ فمنذ وفاة زوجها «كارتر» صارت...

- ماذا تقول؟ من الذي مات؟

- زوجها «كارتر»... قتله قطاع الطرق بعد أن...

انطلق «إدوارد» خارج المحل يجري ثم عاد بسرعة وطلب من مساعده أن يبقي «ألفريد» يعمل معه ريثما يعود ثم خرج مسرعا إلى بيت عمه والدموع تخط خديه حتى وصل ووجد «سوزان» جالسة تقرأ كتابا فلمحته والدموع تنهمر من عينيه

- «إدوارد»... ما بك؟ ماذا أصابك؟

- يجب أن أغادر يا «سوزان»

- أين تغادر؟ أخبرني ماذا يجري؟

- لقد مات عمي «كارتر» وأصبحت زوجته مشلولة ولا أدري كيف هي «آنيا» الآن

- ومن أخبرك بكل هذا؟

- سأخبرك فيما بعد... أنا بحاجة إلى حصان، هل يمكن أن تجدي لي واحدا الآن؟

دخل السيد «آرثر» في هذه الأثناء وقال لهما

- ماذا يحدث؟... صوتكما يصل لآخر الشارع

- أبي لقد وصلت في الوقت المناسب... لقد مات عم «إدوارد» وهو يريد الذهاب الآن

- ومن أخبرك بذلك يا «إدوارد»؟

- أحد القادمين من «فوانيمور»

- ومتى مات؟

- منذ مدة

- أنا حقا آسف يا «إدوارد» على وفاة عمك... لكن لا داعي للعجلة، سترتاح الآن ثم ترتب حقيبتك وستذهب غدا صباحا بعربتي رفقة السائق

- أبي... سأذهب أنا أيضا

تفاجأ «إدوارد» بطلبها مرافقته ثم قال لها

- لا يمكن أن تأتي معي يا «سوزان» فالطريق طويلة

تجاهلت «سوزان» كلامه وأعادت طلبها من والدها

- أرجوك يا أبي، اسمح لي بأن أذهب معه

لم يعتد السيد «آرثر» أن يرفض طلبا لابنته فهز كتفيه موافقا ثم قال «لإدوارد»:

- إنها عنيدة يا بني ولن تسكت حتى أوافق لهذا أطلب منك أن تحرسها حتى تعودا بالسلامة... حضرا نفسيكما ولا تنسيا أن تأخذا معكما ملابس صوفية فالليل بارد جدا وأكل يكفيكما طول الطريق

في الصباح ودعا السيد «آرثر» ودخلا العربة وانطلقت بهما نحو «فوانيمور»... وضع «إدوارد» رأسه على زجاج النافذة وهو ينظر إلى السماء أما «سوزان» فكانت تنظر إليه وهي تعلم أنه غاضب منها... فمنذ أن علم بأنها مخطوبة لذلك المدعو»جاكوب» لم يعد يكلمها كما السابق بل صار يأتي متأخرا إلى المنزل ويخرج باكرا منه حتى لا يلتقي بها وصار يمضي معظم يومه في محله أو عند صديقه «نوح» في قرية «الساكلوديد» الذين تعرفوا عليه وصاروا يحبونه...

مر اليوم الأول ولم يتكلما ثم جاء اليوم الثاني و»إدوارد» صامت لا يتكلم فلم تشعر «سوزان» بنفسها إلا وهي تمسك يده ثم قالت له وهي تلعب بأصابع يد ه

- هل أنت غاضب مني يا «إدوارد»؟

لم يجبها واكتفى بهز رأسه نافيا

- «إدوارد» هل تعلم بأنني أحبك ؟ هل تعلم بأنني أبكي كل ليلة على وسادتي لأنك الشخص الذي كنت أنتظره... الشخص الذي كنت أرسمه في مخيلتي دائما... هل تعتقد بأنني لا أعلم أنك تحبني ولا تريد أن تخبرني بذلك؟

هل تعتقد بأنني قد أغرم بشاب مثل «جاكوب»؟... لو كنت أحبه لأخبرتك منذ البداية بأنني مخطوبة إليه، ولكنني كنت أنتظر كل يوم أن يرفض الزواج بي... حاولت أن أبعده بشتى الطرق ولكنه لا يفهم بأني لا أحبه... لا أستطيع أن أرفضه لأن أمي من طلبت مني أن أقبل الزواج به وإن لم أفعل فلن تسامحني أبدا لأنه أنقذني مرة من سهم طائش في مدرسة الفرسان كان متوجها نحوي فأبعدني بسرعة ليدخل السهم ذراعه... كان ذلك السهم سيخترق صدري وليته فعل... فبعد أن شفي من جرحه استغل الحادث واستغل معها صداقة والدينا ليتقدم لخطبتي... رفضته أنا ولكن أمي ألحت علي للزواج منه وقالت لي لا ترفضِ يا «سوزان» شخصا أنقذك من الموت... لقد أنقذني حقا من الموت ولكنه سيأخذني إلى موت آخر

وضعت يدها على ذقنه تدير وجهه إليها والدموع تملأ عينيها

- لماذا لا تتكلم؟... ألا يكفيك ما قلته لك؟

وضع يده على فمها يطلب منها السكوت، ثم بإبهامه مسح الدموع من على خديها

- وأنا أحبك يا «سوزان»... منذ أول مرة رأيتك فيها لكن ماذا عساني أفعل؟ هل تعتقدين أنه كان بمقدوري أن أخبرك في تلك اللحظة بأنني أحبك؟ أم كان سهلا علي أن أذهب بكل بساطة إلى والدك وأطلب يدك منه؟ لقد حاولت مرارا وتكرارا أن أبوح لك ولكني فشلت في ذلك يا «سوزان»، أنقذني والدك، آواني وأطعمني وشغَّلني فهل تظنين أنه كان بمقدوري أن أطلب يدك منه أيضا؟... لقد كنت بحاجة لقليل من الوقت، فقط القليل منه... أو ربما في ذلك الحفل كنت سأخبرك أو على الأقل أخبر «أماندا» وأعترف لها بحبي لكي، ولكن شاءت الأقدار أن أعرف بأنك لغيري... لا أنكر أنني تألمت كثيرا حينها ولكن هذا كان متوقعا... أنت لست لشخص مثلي حتى لو لم تكوني مخطوبة... أنا أدرك منذ البداية بأن الحياة دائما ما تأخذ مني كل الذين أحبهم... «سوزان» أنت مخطوبة لرجل آخر وستتزوجين منه ويجب أن نرضخ لهذا الواقع وكل ما أعدك به هو أنني سأبقى أفضل صديق حضيت به يوما... ولا تدري ماذا تخبئ لنا الأيام...

كان «نوح» جالسا عند باب بيته حتى سمع صراخا آتيا من بعيد فهرع إليه مثله مثل بقية من سمعوه حتى وصل إلى جمع غفير متجمع حول شيء فبدأ ينسل بينهم بصعوبة حتى وصل إلى ما تجمعوا حوله... لقد كانت جثة هامدة لشاب عشريني مازالت الدماء تسيل من أسفل ذراعيه... التفت «نوح» إلى شخص واقف بجانبه وسأله

- ما به؟

- لقد انتحر هنا أمام الجميع... حاولنا إسعافه ولم نستطع

- ولماذا انتحر؟

- إنه جاري... لقد أحب فتاة من المدينة وأحبته أيضا... وافق والداها على زواجها منه ولكن والديه رفضاها وأظن أنك تعرف السبب... حاول معهم مرارا وتكرارا وهددهم في العديد من المرات بأنه سينتحر إن هي تزوجت بشخص آخر فأخبروه بأن موته أهون عليهم من خروجهم من «الساكلوديد»... تزوجت الفتاة فأمسك سكيننا وقطع به شرايينه وهو يصرخ باسمها.

أمسك «نوح» رأسه وغادر مسرعا وهو يلعن قبيلته وعاداتها الجبانة... ليست المرة الأولى التي ينتحر فيها شخص أو يهرب من «الساكلوديد» ولنفس السبب... فكر كثيرا ووصل إلى حل واحد

وصل «إدوارد» و»سوزان» إلى «فوانيمور» وبدآ يتأملانها من زجاج النافذة... كان قلبه يخفق اشتياقا لتلك الشوارع، أخرج رأسه من النافذة وأخبر سائق العربة أي طريق يسلك وكيف هو شكل البيت ثم أدخل رأسه وقال ل «سوزان»

- سوف تتعرفين ب»آنيا» وسترين كم هي جميلة ورائعة

وصلت العربة إلى البيت ونزل منها «إدوارد» ثم مد يده إلى «سوزان» يساعدها في النزول وهو يقول:

- هذا هو البيت الذي نشأت فيه وذلك الإسطبل التي ترعرعت فيه... يبدو أنه صار يملك بابا جديدا مع قفل... هيا لندخل البيت

صعدا معا درجات الباب الثلاث ثم مد يده يطرق الباب فلم يستجب له أحد، فطرقا مجددا ومجددا وفي كل مرة كان يزيد من حدة ضرباته ولكن لا جدوى

- لا أعتقد أن «آنيا تدرس اليوم فهو يوم عطلة
- ربما تكون في الطابق العلوي ولم تسمعك
- يستحيل ألا تسمع كل هذا الضرب على الباب فلقد كدت أكسره... سأناديها ربما تسمعني

ابتعد «إدوارد» قليلا عن الباب ورفع رأسه ناحية نافذتها وهم بمناداتها فانفتح باب الإسطبل وخرج منه شخص منتفخ العينين يبدو وكأن تلك الضربات على الباب جعلته يستفيق من نوم عميق

- من أنتما وعمن تبحثان؟
- بل من أنت؟ وماذا تفعل هنا داخل الإسطبل؟
- لقد استأجرته من الآنسة «آنيا»
- استأجرته ؟ وأين هي الآن؟
- لقد رحلت مع أمها إلى بيت آخر وباعت هذا البيت للعمدة

أمسك «إدوارد» رأسه وجلس على إحدى درجات الباب ونزلت الدموع على خديه بسرعة

- أنا السبب في كل هذا... لو بقيت جانبها ما كان لهذا أن يحدث

اقتربت منه «سوزان» تواسيه قائلة:

- لست السبب يا «إدوارد» فقد فعلت ما عليك فعله وأكثر... لا تلقِ اللوم على نفسك أبدا

اقترب منهما الرجل بعد أن تعرف على «إدوارد»

- معذرة منك يا «إدوارد» ولكن أعتقد أنه من الأحسن أن تبتعدا عن البيت وإلا رآكما شخصا ما وأخبر العمدة فهو لا يتسامح مع ممتلكاته الخاصة

نهض «إدوارد»وهو يمسح الدموع من عينيه

- هل تعرف عنوانها الجديد؟
- نعم
- حسنا أخبرنا به وابق هذه العربة عندك وأطعم الحصان وسأعود لأخذهما في الغد في هذا الوقت

وأعطاه مبلغا من المال لمعت عينا الرجل عند رؤيته ثم أشار للسائق أن يأتي معهما ولكنه طلب منهما أن يسمحا له بالذهاب للمبيت عند خاله وسيلتقي بهما غدا في هذا المكان

فوافقا

نهض «نوح» من مكانه واتجه إلى ساحة القبيلة أين يتجمع السكان بكثرة واعتلى المنصة المخصصة لشيوخ القبيلة لإلقاء خطبهم ثم نادى بأعلى صوته حتى برزت عروق رقبته

- أيها «الساكلوديد»

فانتبه له الجميع بعد أن تركوا ما كانوا يقومون به

- ألا يكفي هذا ؟ بكم من شاب وشابة يجب أن نضحي ؟ إلى متى سيبقى أطفالنا بلا تعليم؟ إلى متى سنلبس جلود الحيوانات ونسكن الأكواخ والخيام في هذا الوادي ؟ إلى متى سنبقى خائفين من جدران وهمية نحن من بناها حولنا ؟ إلى متى سنخاف من قيود وأغلال نحن من وضعها في أيدينا وأعناقنا؟... أيها «الساكلوديد» إن العدو الأكبر ليس التحضر ولا المدينة وسكانها بل هو نحن ...نعم نحن أعداء أنفسنا لأننا سمحنا لمجموعة من الأعراف المجحفة أن تسير حياتنا، ماذا فعلت لنا هذه الأعراف والعادات غير أنها أبقتنا نلبس جلود الحيوانات ونشرب من النهر كالحيوانات في حين بلغ هؤلاء من يسكنون في الأعلى من التطور ما بلغوا...

فجأة وعلى غفلة منه تعرض لضربة قوية خلف رأسه جعلته يسقط مغشيا عليه .

وصل «إدوارد» و «سوزان» إلى البيت الذي وصفه لهما الرجل وكان بيتا عاديا جدا، جدرانه من الطوب وبابه خشبي مهترئا بعض الشيء عند حوافه يتوسط نافذتين إحداهما مغلقة بألواح صغيرة حتى لا تفتح مجددا... تقدم «إدوارد» بهدوء وطرق الباب ثلاث طرقات خافتة فسمع صوتها تنادي من الداخل

- من ؟

فأجابها وفكه يرتعش

- أنا... أنا يا «آنيا»... أنا «إدوارد»

من شدة صغر المنزل سمع صوت خطواتها وهي تجري لتفتح له الباب ارتمت إلى حضنه بكل جسدها وهي تبكي بأعلى صوتها و «إدوارد» يبكي معها وبقيا متعانقين مدة من الزمن ليبتعدا عن بعضهما البعض بهدوء، رفعت رأسها إليه تتفحصه ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة وضربته على كتفه وقالت:

- لقد ازداد وزنك قليلا

- حقا؟... لم ألاحظ ذلك

- ومن هذه الحسناء التي معك؟ هل هي «سوزان» التي تحبها وأخبرتني عنها في رسالتك؟

ابتسمت «سوزان» وهي تنظر إليه فاحمر وجهه وقال:

- تعالي يا «سوزان» هذه «آنيا» التي طالما حدثتك عنها...

تعانقت الفتاتين بحرارة كبيرة ثم طلبت منهما «آنيا» الدخول فدخلا ووجدا «ويندي» نائمة ونصف وجهها يظهر عليه الشلل فقبلا رأسها وجلسا، أما «آنيا»فاستأذنتهما لتذهب إلى المطبخ فرفضا أن تتعب نفسها ولكنها أصرت فنهضت معها «سوزان»، أما «إدوارد» فطلب الخروج لشراء بعض الحاجيات لكن «آنيا» أخبرته أن كل شيء موجود في المطبخ.

بدأ «نوح» يستفيق شيئا فشيئا فوجد نفسه ممددا في خيمة «سيفا»... حاول لمس مكان الضربة لكن عصابة كانت تلف رأسه منعته من ذلك، لما لاحظت «سيفا» أنه أفاق ذهبت إليه وهي تحمل في يدها كوبا به مشروبا ساخنا تنبعث منه رائحة كريهة، ساعدته على إسناد ظهره إلى الجدار وطلبت منه شرب ما في الكوب دفعة واحدة فأغمض عينيه وشرب نصفه فارتعش بدنه من مرارة المشروب...

أخذت «سيفا» الكوب منه ووضعته جانبا ثم قالت له وهي تتحسس حرارته:

- ما هكذا تحل الأمور يا بني، توجد خطة لكل شيء فالتهور دائما ما يزيد الأمور تعقيدا.

- أيعجبك ما نحن عليه؟... شباب في عمر الزهور ينتحرون ويهربون أو يتزوجون رغما عنهم ليعيشوا بغصة في قلوبهم بقية ما عاشوا... أطفال لا

يدرسون ومرضى لا يعالجون وتجار لا يتعاملون بالنقود... لا نملك حتى وثائق تثبت وجودنا فما الفرق بيننا وبين الحيوانات؟

- الفرق أننا نملك عقولا نفكر بها يا بني... وحتى لا نكون مثل الحيوانات يجب أن نستعمل هذه العقول... أتعلم ماذا سيحدث الآن؟ سينتظرون شفاءك ثم يحيلونك على المجلس ليقرر عقوبتك وبما أن تهمتك هي التحريض على الشغب والاستهزاء بأعراف القبيلة أمام الملأ وطلب الخروج عنها فلا أعتقد أن عقوبتك ستكون أقل من الطرد.

- الطرد أهون من عيشة الحيوانات فسأغادر بنفسي على كل حال.

- ليس الأمر بهذه البساطة يا بني، هل تعتقد أنه يمكنك العيش خارج «الساكلوديد» بكل بساطة؟ هل تعتقد أنك تستطيع الترحال من مكان لآخر والعمل بدون وثائق؟ نحن ننتمي لهذه القبيلة يا بني والهروب منها ليس الحل الأمثل

- وماذا أفعل؟

- كان يجب أن تطرح هذا السؤال على نفسك قبل أن تقوم بحماقتك... أكمل ما تبقى في الكوب واسترح وأنا سأذهب إلى المجلس لأكلمهم في أمرك وأحاول تغيير رأيهم

- وكيف ذلك؟

- لا تقلق، فكل أعضاء المجلس مدينون لي لأنني ساعدتهم وساعدت زوجاتهم كثيرا، سأحاول استغلال الأمر للتأثير عليهم... سأقول أيضا أنك نادم على ما فعلت وأن حزنك على الشاب الذي انتحر هو ما دفعك لفعل ذلك

- ولكني لست نادما يا «سيفا»، بل نادم لأنني لم أقم بذلك من قبل... من فضلك لا تكلمي أحدا من أجلي ولا تستعطفيهم فلو قبلوا العذر الذي ستقدمينه وأبقوني في القبيلة فسأعيش بقية حياتي شخصا تابعا منكسرا وسيذكرني الجميع بأنني كنت على وشك الطرد ولكن عطف المجلس وشفقتهم أبقوني هنا، وإن هم رفضوا طلبك فسيقولون بأنني طلبت العفو منهم كي لا يطردونني ولكنهم رفضوا... سأكون خاسرا في كلتا الحالتين

- بعض الخسارات يا ولدي تعتبر ربحا... لا تتغير الأمور بين ليلة وضحاها فنحن بحاجة لكسب المزيد من الوقت... اشرب كوبك كما طلبت منك ودعني أتصرف.

- أخبريني يا «آنيا» ما الذي تغير في المدينة بعد رحيلي

- الأمور هنا تزداد سوءا، فأعضاء المجلس زاد جشعهم وطمعهم فراحوا يسنون القوانين ويخيطونها على مقاسهم حتى يزدادوا ثراء وغنى... لقد قاموا بإفقار السكان بالضرائب ثم استغلوا حاجتهم إلى المال فأقرضوهم المال بالفوائد مع رهن الممتلكات فإن انتهت مدة القرض ولم يدفعوا ما قاموا باستلافه صودرت منهم ودائعهم التي رهنوها مقابل ذلك

- وهل صادروا البيت لأنك اقترضت منهم المال؟

- لا أبدا... إنها مجرد خطة صغيرة استعملتها حتى أعطي العمدة ضربة لا ينساها أبدا

- وكيف ذلك

- وهل تشك في ذكائي؟

- لا أبدا... سأخرج قليلا للمشي في شوارع المدينة فقد اشتقت لها كثيرا، أراكما لا حقا

خرج «إدوارد» وبقيت «سوزان» و»آنيا» في المنزل يحضران العشاء

- ما رأيك في ابن عمي يا»سوزان»

- شاب وسيم وذكي ولكنه غامض بعض الشيء

- ولكنكما تحبان بعضكما البعض، صحيح؟

- نعم

- هل تخططان للزواج قريبا ؟

أطرقت «سوزان» رأسها وقالت بحزن شديد

- لا... لا يمكن أن نتزوج

- وما الذي يمنعكما من ذلك مادمتما تحبان بعضكما البعض؟ هل رفض أهلك تزويجك له ؟

- لا لم يرفضه أحد ولكنه جاء متأخرا

- لقد فهمت... هناك شخص آخر إذن
- نعم... لقد كنت مخطوبة لشخص آخر عندما جاء «إدوارد»
- لماذا لا ترفضينه مادمت تحبين «إدوارد»؟
- ليت الأمر كان بهذه البساطة يا «آنيا»

كان «إدوارد» يمشي في شوارع المدينة وأزقتها حتى خطر في باله أن يزور السوق ليرى الأسعار هناك، فتفاجأ بارتفاعها ووصولها إلى ضعف ما هي عليه في «إبتادور»، ولكن ما زاد دهشته هو تذمر الناس من تلك الأسعار وإقبالهم عليها بشراهة كبيرة وكأن الأرض ستتوقف عن إنتاج الخضر والفواكه فغادر السوق وهو ساخط على السكان أكثر من سخطه على أعضاء المجلس... هؤلاء السكان الحمقى كلما تعرضوا لطعنة فتحوا صدورهم لطعنات أخرى... العبد يبقى عبدا

عاد «إدوارد» إلى المنزل ووجد الفتاتين قد حضرتا العشاء فغسل يديه واتجه إلى طاولة الأكل في المطبخ وهو مندهش منهما وكأنهما يعرفان بعضهما البعض منذ فترة طويلة فجلس معهما على الطاولة المزينة بأشهى أنواع المأكولات أما «ويندي» فقد كانت نائمة

- ألم تستيقظ زوجة عمي بعد؟
- بلى... استيقظت عندما كنت في الخارج فقمت بإطعامها وإعطائها الدواء فنامت مجددا
- هل أحضرت لها طبيبا؟
- بل أطباء يا «إدوارد»، أخبروني جميعا أنها شلت ولن تعود كما كانت
- سأحضر لها طبيبا من «إبتادور»
- لقد جاء ثلاثة من «إبتادور» وقالوا لي نفس الكلام... لا تخف فحالتها مستقرة الآن
- ومن أين كنت تأتين بالمال؟
- لقد قمت بتأجير الحظيرة مقابل مبلغ أتقاضاه كل شهر، أما المال الذي أخذته من العمدة لقاء البيت فقد خبأته حتى يحين وقته.

بعد العشاء جلس ثلاثتهم يتكلمون وكان «إدوارد» و«آنيا» يسترجعان الذكريات القديمة و «سوزان» تضحك على ما كانا يقومان به من مشاكسات واستمر بهم الحال حتى ساعة متأخرة من الليل... نامت الفتاتين في الغرفة مع «ويندي» أما «إدوارد» فقد افترش له مكانا في المطبخ

وصلت «سيفا» إلى خيمة شيوخ القبيلة فوجدتهم يتكلمون بجدية حول موضوع «نوح»

- مرحبا بك يا «سيفا» لقد جئت في الوقت المناسب، لقد كنا نتكلم حول ما قام به «نوح»

- وأنا بدوري جئت لأكلمكم عنه

- اجلسي وأخبرينا ما عندك

- لقد أفاق للتو من غيبوبته وهو الآن يستريح في خيمتي... لقد تكلمت معه ووجدت في كلامه الندم على فعلته فما فعلها إلا تأثرا بانتحار ذلك الشاب وهو ما دفعه للقيام بفعلته ولقد أخبرني بأنه مستعد للاعتذار أمامكم عما بدا منه

نهض مستشار شيخ القبيلة وقد تغيرت ملامح وجهه للغضب

- وهل يكفينا اعتذاره؟ ما قام به أمام سكان القبيلة لم يجرأ أحد على القيام به من قبل، لقد تجرأ على عاداتنا وتقاليدنا التي ورثناها أبا عن جد، يجب أن ينال العقوبة الكبرى على ما فعله حتى لا يتكرر الأمر مرة أخرى

- ولكنها أول مرة يخطئ فيها، فكيف تطردونه من «الساكلوديد» وأنتم تعلمون أنه يتيم الأبوين

نهض شيخ القبيلة واتجه إلى مدخل الخيمة وألقى نظرة خارجها ثم عاد وهو يمسح على لحيته

- تعلمين يا «سيفا» أن لك مكانة عظيمة في مجلسنا وفضلك كبير على الجميع ولن أنسى لكي أبدا مساعدتك لزوجتي على الإنجاب بعد معاناتنا لسنين طويلة ولكنك أيضا تعلمين أن لا أحد يعلو فوق قوانيننا وأعرافنا فلو تساهلنا معه مرة لظهر من غيره مثل الذي ظهر منه... لقد كان قرارا بالإجماع ولا رجعة فيه

- يمكنكم سجنه مدة من الزمن ولكن لا تطردوه أرجوكم فهو لا يملك مكانا يذهب إليه

- يمكنكم سجنه مدة من الزمن ولكن لا تطردوه أرجوكم فهو لا يملك مكانا يذهب إليه

- لن نطرده يا «سيفا»
- ماذا ستفعلون إذا ؟
- سنعدمه.

نهض «إدوارد» على رائحة القهوة فوجد «آنيا» واقفة تعد فطور الصباح فقام من مكانه

- صباح الخير

- صباح الخير أيها الكسول

- هل نهضت «سوزان»؟

- لا... ليس بعد

- تلك الكسولة لن تتعلم أبدا النهوض باكرا

- دعها تنام قليلا فلم ننم باكرا البارحة

- لكن يجب أن نعود فالطريق أمامنا طويلة جدا وإذا لم نقلع باكرا سنبيت في الغابة

- ولماذا أنت مستعجل، ابقيا معي يوما آخر

- لقد وعدت السيد «آرثر» بالعودة بسرعة فابنته معي ولا أريده أن يقلق عليها... لا تخافِ فسأزورك باستمرار وسنتبادل الرسائل

كان «إدوارد» و«سوزان» يهمان بالرحيل بعد أن تركا لها مبلغا كبيرا من المال حاولت رفضه لكنهما أجبراها على أخذه ووعداها بأنهما سيزورانها بين الحين والآخر... تعانقا جميعا ثم ركبا العربة ورحلا تاركين «آنيا» خلفهما تلوح لهما

- ما رأيك بها يا «سوزان» ؟

- قلبها أنظف قلب قابلته في حياتي، وأصحاب القلوب الطيبة دائما ما يعانون ولكن هذه الفتاة لا تستحق أبدا ما يحدث لها

- وما رأيك في زوجة عمي «ويندي»

- لا أستطيع إبداء رأيي فيها فأنا لم أكلمها، يبدو أن المرض أعياها كثيرا... آه لقد تذكرت شيئا أريد أن أسألك عنه

- ما هو؟

- هل تذكر عندما تكلمنا أول مرة في حديقتنا؟

- ومن ينسى لقاءً كذاك؟

- لقد أخبرتني حينها أن «ويندي» طردتك لسبب خطير لا يعلمه غيركما

- نعم

- هل يمكن أن أعرف ما هو هذا السبب؟
- سأخبرك ولكن لا تخبرِ أحدا به
- أعدك يا «إدوارد»
- عندما كنت صغيرا وبعد وفاة أمي بقليل، جاءت امرأة إلى البيت، أدخلتها زوجة عمي الذي كان غائبا حينها وطلبت منها الدين الذي عليها فقد ملت من الانتظار لسنوات، طلبت منها زوجة عمي مهلة أخرى ولكن المرأة رفضت الخروج من المنزل بدون مالها وقالت لها بالحرف الواحد «إذا لم تعطينِ المال سأخبر زوجك أن «آنيا» ليست ابنتكما بل طلبت مني استبدالها بابنتكما التي ولدت ميتة بطفلة ولدت معها في نفس اليوم وذلك مقابل مبلغ من المال أعطتني نصفه ومازلت أنتظر نصفه الثاني منذ سبع سنوات... خافت «ويندي» فقامت بإعطائها قلادة من مجوهراتها وعندما أرادت مرافقتها إلى باب المنزل وجدتني واقفا عند باب الغرفة فعلمت بأنني سمعت كل شيء
- وعمك «كارتر» ألم يكن موجودا عند ولادة ابنته
- لا لم يكن موجودا فقد جاء بعد ولادتها بشهرين... لقد كان ينتظر ولادة ابنته بفارغ الصبر خصوصا بعد أن أخبره الطبيب بأن فرص نجاتها ضئيلة وأن زوجته لن تستطيع الإنجاب مجددا فخافت أن يطلقها إن هو علم بموت ابنته فطلبت من الممرضة استبدالها بطفلة ولدت معها في نفس الوقت مقابل مبلغ كبير تدفعه لها على مراحل
- وهل استطعت أن تعرف من هما والداها الحقيقيين؟
- لا... لم أرد البحث عنهما فهي في نظري ابنة عمي وستبقى كذلك
- ستنهار إن هي عرفت الحقيقة
- بالطبع... ما هذا الذي على أنفك يا «سوزان»؟
- ماذا؟
- قطرة دم تسيل من أنفك؟

ارتبكت «سوزان» وتغيرت ملامح وجهها... مسحت أنفها بمنديل أخرجته بسرعة من حقيبة يدها ثم قالت له

- من فضلك لا تخبر أحدا بهذا

- لماذا أنت خائفة هكذا؟ هذا يحدث للجميع حتى أنا يسيل أنفي أحيانا بالدم جراء العمل تحت أشعة الشمس

- أعلم أنه أمر طبيعي لكن أرجوك لا تخبر أحدا خاصة أبي فكما تعلم هو يخاف كثيرا علينا نحن ابنتاه وإن علم بالأمر سيعطيه أكثر من حجمه

- حسنا أعدك بأنني لن أخبر أحدا بذلك ولكن هل يحدث معك هذا كثيرا؟

انزعجت «سوزان» منه وأظهرت له انزعاجها بل أنها أدارت رأسها ناحية النافذة ولم تلتفت إليه.

نقل «نوح» من خيمة «سيفا» إلى خيمة أخرى وبقي فيها تحت حراسة مشددة فقد أخبروه أن موعد إعدامه سيكون بعد أربعة أيام وهو قرار مجلس الشيوخ بالإجماع وستكون هذه المدة كافية لتهيئة المنصة لإعدامه أمام الملأ

كانت «سيفا» هي الوحيدة من السكان المسموح لهم بزيارته في حبسه وكان اسمه يذكر على كل ألسنة «الساكلوديد» فكبار السن يرون في إعدامه حفظ لكرامة القبيلة وقوانينها التي أراد «نوح» تدميرها، أما الشباب فيرون أن العقوبة مبالغ فيها كثيرا وأن ما قام به «نوح» لا يستحق الإعدام.

الفصل الرابع

كان السيد «آرثر» وابنته «سوزان» و «إدوارد» جالسون على طاولة العشاء يأكلون في صمت حتى تكلم «آرثر»

- ابنتي «سوزان» لقد كلمني والد «جاكوب» بشأن تحديد موعد الزفاف والتحضيرات الواجب القيام بها فهم كما أخبرني يريدون لابنهما حفل زفاف لم تشهد له «إبتادور» مثيلا

وضعت «سوزان» الملعقة وقد احمر وجهها غضبا

- ولم كل هذه العجلة يا أبي؟ لقد اتفقنا أن نتزوج بعد عام ونصف من الآن فما الذي تغير؟

- لا شيء تغير يا بنيتي ولكنهم يرون أنها مدة طويلة جدا وقد تكثر فيها المشاكل وأنا مع رأيه فمن الأحسن لكما أن تعجلا بزواجكما

- هذا رأيكما ؟ وماذا عن رأيي أنا ؟ ألا يهمك يا أبي؟

- بل يهمني رأيك... حسنا لا داعي للغضب، سنؤجل هذا الكلام... أخبرني يا «إدوارد» كيف وجدت ابنة عمك ووالدتها؟

- ليسا على ما يرام ، فزوجة عمي تعرضت لشلل نصفي يمنعها من الحركة والكلام، أما «آنيا» فقد اضطرت إلى بيع المنزل للعمدة... لقد أخبرتني بأن مجلس البلدية هناك زاد فسادهم فصاروا يسنون القوانين التي تزيدهم ثراء وتزيد السكان فقرا ولقد قمت بجولة بنفسي في الأسواق ولاحظت أن الأسعار وصلت إلى ضعف ما هي عليه هنا...

- لقد أخبرني أصدقائي بذلك، ولكن ماذا عن المترشحين الجدد؟

- لا أعتقد أنهم سيغيرون شيئا فمعظمهم أصدقاء لأعضاء المجلس الحالي... المشكل ليس فيهم بل فيمن انتخبهم ووضعهم في تلك المناصب، الخطأ خطأ السكان يتحملونه لوحدهم، تجدهم يتذمرون ويشتكون غلاء الأسعار ولا يفعلون شيئا حيال ذلك بل كلما زادت الأسعار زاد إقبالهم عليها

التفت الأب إلى ابنته ليسألها عن رأيها في مدينة «فوانيمور» لكنه تجمد في مكانه عندما رآها ولم يستطع أن ينطق بحرف واحد

- مابك يا أبي؟

- أليست تلك قطرة دم في أنفك؟

في لمح البصر تناولت «سوزان» أقرب منديل من طاولة العشاء ومسحت به أنفها وهي تقول بارتباك شديد

- مجرد قطرة دم عادية فلقد أمضيت اليوم في الحديقة تحت الشمس

- «إدوارد» اذهب وأحضر الطبيب «جورج»

- لا يا «إدوارد»... مابك يا أبي؟ الأمر لا يستحق طبيبا

- قلت لك اذهب وأحضر الطبيب يا «إدوارد»

انطلق «إدوارد» من مكانه كالسهم وهو يعلم يقينا أن الأمر أكبر من مجرد قطرة دم وأكثر من مجرد قلق أب على ابنته فلقد لاحظ ذلك في نظرة «آرثر» واحتقان صوته... أخذ يعدوا خارجا كحصان جامح ولكن المسافة بينه وبين الطبيب باتت وكأنها أميال وما هي في الحقيقة إلا شارعين فقط... وصل إليه ووجده يهم في غلق عيادته فاستعجله على المجيء معه .

كانت الليلة الأخيرة لنوح، جالس في حبسه وأمامه طاولة وضع عليها أشهى الطعام وألذه فمن عادة «الساكلوديد» إكرام الشخص المحكوم عليه بالإعدام بعشاء أخير فيه من لحوم الطير والأغنام أشهاها ومن الفواكه ألذها أطيبها، لكن لم تسمح له نفسه بالأكل ولا حتى النظر إلى كل تلك الخيرات حتى دخلت عليه «سيفا» وجلست بجانبه

- ما بك لا تأكل يا ولدي؟

- هل تعديني بشيء يا «سيفا»

- بل أعدك بكل شيء تريده يا بني فقط أطلب ما تريد

- أريد منك أن تخبري جميع الأطفال بأنني فعلت ذلك لأجلهم... أو على الأقل حاولت... حاولت أن أجعلهم يدرسون في مدارس ويعالجون في مستشفيات كالبشر ...

- قصتك ستصبح على كل لسان يا بني فلقد غدوت بطلا حقيقيا في نظر الشباب، لا أنكر أبدا أنك تهورت فيما فعلت ولكنك أعطيتهم شحنة كبيرة من العزم وإني لأراهم ثائرون يوما كما ثأرت أنت، غدا أريدك أن تقف شامخا فوق منصة الإعدام تماما كما يقف الجنود وقفتهم الأخيرة ، وانظر إلى الناس في عيونهم حتى تترسخ صورتك في عقولهم مادامو أحياء... أتمنى أن تأخذك السماء روحا نقية

ساعة ونصف، هي المدة التي قضاها الطبيب داخل غرفة «سوزان» وكأنها عام في نظر السيد «آرثر» و»إدوارد» اللذان كانا ينتظران خروجه، كان «آرثر» رافعا رأسه لأعلى ينظر للسقف وكأنه يطلب العون من السماء أما «إدوارد» فقد أسند ظهره على الجدار وهو لا يعلم شيئا مما يدور حوله... لحظات مرت حتى فتح الباب وخرج الطبيب ضاما شفتيه وكأنه تجرع كأسا من الخل دفعة واحدة، هرول إليه «آرثر» ليستفسر أما «إدوارد» فقد عدل من وقفته واقترب منهما قليلا

- أخبرني يا «جورج» بحق السنوات التي مضت على صداقتنا

- لن أكذب عليك يا «آرثر» ولكنه نفس الورم الذي أصاب زوجتك... ولكن لا أريدك أن ...

قبل أن ينهي الطبيب جملته كان «آرثر» قد هوى ساقطا على الأرض مغشيا عليه أما «إدوارد» الذي استوعب الآن ما يحدث حوله لم يدر أيستفسر الطبيب مجددا أم يتفحص السيد «آرثر» أم يدخل عند «سوزان» يواسيها لم يشعر بنفسه وهو يمسك الطبيب من كتفيه ويهزه هزا عنيفا ثم ألصقه بالحائط وهو يقول له

- وما أدراك أنت بأنه نفس الورم؟

- أنا من كشف على والدتها أيضا يا «إدوارد»، إنه مرض وراثي وكنا ننتظر أن يظهر على إحدى ابنتيها... أربعة أشهر يا «إدوارد»

أظن أن هذا كل ما تبقى بين أيدينا من وقت

جاء الصباح بعد ليلة طويلة لم يغمض لنوح فيها جفن، دخلت عليه «سيفا» لتطلب منه أن يهيئ نفسه للخروج ،كان هادئا مطمئنا راضيا بتلك النهاية، وقف على قدميه ولبس سترته بهدوء حتى دخل عليهما شخص ممن كلفوا بحراسته يطلب منه الخروج من الخيمة والسير نحو المنصة وهذا ما فعله «نوح»...

بخطى ثابتة تظهر مدى ثقته في نفسه خرج من الخيمة رافعا رأسه كما طلبت منه «سيفا» يمشي بين «الساكلوديد» الذين حضر منهم الشيوخ والأطفال فقط أما الشباب فكأن الأرض ابتلعتهم، وصل إلى منصة الإعدام وقد جلس عليها الشيوخ في كراسيهم المزينة وهم يقابلون حشدا لابأس به، نهض شيخ القبيلة وتقدم عند حافة المنصة وصاح مخاطبا سكان القبيلة - أيها «الساكلوديد» الشرفاء، لقد كان شرفا لي أن أحكمكم ومجلسي هذا لمدة فاقت العشرون عاما ولقد كان عهدا منا اتخذناه منذ أن ولينا عليكم بأن نقدم نفوسنا من أجل هذه القبيلة وعاداتها التي ورثناها عن آبائنا وألا نحيد عنها مهما كلفنا الأمر، ولكننا على ما يبدو تساهلنا كثيرا في إصدار الأحكام والعقوبات في خصوص هؤلاء الخارجين عن ملتنا حتى وصل الأمر بالبعض أن يطلبوا من الناس الخروج عن مبادئنا علانية وهو مالا نرضاه أبدا بل ويجب أن نضع له حدا نهائيا بإصدار حكم يكون عبرة لمن...

سكت فجأة عن الكلام وقد جحظت عينيه وهو ينظر خلف ذلك الحشد من «الساكلوديد» ووقف معه بقية أعضاء المجلس والدهشة تعقد ألسنتهم فعلم المتجمعون أن شيئا مريبا يحدث خلفهم فالتفتوا ليروا مالم يتوقعوه أبدا...

ثلاثة أشهر مرت منذ أن علم الجميع بمرض «سوزان» وقام «جاكوب» بفسخ خطوبته معها بحجة أنه مازال صغيرا على الزواج وهو بالأمس القريب فقط كان يلح هو وعائلته على «آرثر» بأن يعجل في إقامة الزفاف... كانت «سوزان» في سريرها بعد أن اشتد بها المرض نائمة في حالة يرثى لها وقد مرت بجميع المراحل التي مرت بها والدتها غير أن «سوزان» استطاعت أن تصمد أكثر ولكنها تبدو في أيامها الأخيرة من هذه الحياة... انتقلت «أماندا» إلى بيت والدها لتشارك أختها الصغرى أيامها الأخيرة، والدهما «آرثر» الذي أحضر جميع الأطباء إلى بيته قام بحبس نفسه في غرفته لا يخرج منها إلا لقضاء ما يجب قضاءه وعندما تسكن الأنفس وتهدأ الأقدام وينام جميع من في البيت كان يذهب ليقبل رجلي ابنته ويبكي عندهما حتى ساعات الليل الأخيرة... أما «إدوارد» فقد جفت عيناه من البكاء

ما بال الحياة قذرة إلى هذا الحد... تفرش لك بساطا أحمرا وما إن تضع رجليك عليه حتى تسحبه من تحتهما بسرعة لتسقطك... لقد كانت أول فتاة يحبها، بالأمس فقط كان نائما في ذلك السرير عندما دخلت عليه أول مرة تطلب منه أن يكمل حساءه ويلبس الثياب التي اشترتها له... منذ ذلك اليوم بدأ يشعر أنه من البشر ومن يجعلك تشعر أنك من البشر لا يجب أن يموت...

جاء ذلك اليوم المشؤوم، عندما وقفت «سوزان» على رجليها أول مرة منذ ثلاثة أشهر، وقفت بناءً على طلبها هي وأمام الجميع... ولكنها لم تستطع الصمود لأكثر من ثلاث ثواني حتى سقطت وعلم الجميع أنها السقطة الأخيرة التي لا نهوض بعدها فخارت قواهم من الحزن وبدأ البكاء والعويل في البيت، الجميع ينظر إليها والدماء تسيل من أنفها بغزارة إلا «إدوارد» الذي كان في نفسه شيء من القوة والتحمل ما جعله يحملها بذراعيه ويخرج بها من البيت إلى العربة ثم إلى ما لا يعلم أحد...

خرجت «آنيا» من البيت بعد أن اطمأنت على والدتها واتجهت إلى بيت العمدة، أي البيت الذي باعته له، طرقت الباب بهدوء وفتحت لها زوجة العمدة

- أهلا بك يا بنيتي
- أهلا، هل العمدة موجود؟
- نعم هو بالداخل.
- أريد أن أكلمه من فضلك
- حسنا، تفضلي بالدخول

دخلت «آنيا وبقيت تتأمل في منزلهم القديم بعد أن لسعتها رائحته التي أعادت لها ذكريات قديمة جدا حتى اغرورقت عيناها بالدموع... تذكرت والدها عندما كان يعود للبيت وتستقبله بحفاوة وتسأله عن يومه كيف كان ووالدتها التي كانت تحضر له الماء الساخن فور دخوله المنزل وهي بكامل صحتها... ما هي إلا لحظات حتى قطع ذلك التأمل صوت خطوات العمدة وهو ينزل على الدرج فمسحت «آنيا» دمعتها بسرعة ووقفت

- كيف حالك يا «آنيا»؟
- أنا بخير يا سيدي شكرا
- ما سبب هذه الزيارة المفاجئة يا بنيتي؟ هل هناك من يضايقك؟
- لا... في الحقيقة لم يضايقني أحد... ولكن... حسنا سأدخل في الموضوع مباشرة
- ما الأمر يا «آنيا»؟
- جئت أسترد البيت يا سيدي
- ماذا تقولين؟ هل جننتي؟
- لا لم أجن ولكننا اتفقنا بأنني أستطيع شراء البيت منك وقتما أشاء
- ولكن... ولكن ألا تعلمين أن سعر البيوت ارتفع كثيرا والسعر الذي اتفقنا عليه في الوثيقة لا أستطيع حتى أن أشتري به كوخا الآن

-في ذلك الوقت لا أحد منا كان يعلم ماذا سيحدث في المستقبل فلقد كان بإمكان الأسعار أن تنخفض... حتى لا أطيل الكلام يا سيدي، الوثيقة معي على كل حال وممضاة باسمك... سأمهلكم ثلاثة أيام لتخرجوا من البيت أو أتخذ الإجراءات القانونية اللازمة ولا أعتقد أنك تحب أن ترى اسمك يذكر في المحاكم...

نهضت «آنيا» من مجلسها وعلى وجهها ابتسامة المنتصر تاركة خلفها العمدة وزوجته جامدين في مكانهما

* بعد أربع سنوات *

اسمي «نوح» ...

في أحد الأيام وقبل بضع سنوات من الآن كنت جالسا على صخرة في القبيلة التي ولدت فيها متأملا في منحدر يفصلنا عن مدينة «إبتادور»... لم يكن مجرد منحدر طبيعي بل كان الفرق الحقيقي بين العالي والمنخفض، الحضارة والانحطاط، الازدهار والتخلف، التمدن والتبدي... كانت قبيلتي تسمى «الساكلوديد»، بالرغم من صغر سني إلا أنني رغبت وبشدة في تغيير ما يدور حولي فلم يكن بوسعي تحمل المزيد مما كنا نعيشه من تخلف وجهل، بينما أنا أتأمل في ذلك المنحدر حتى لمحت شخصا ينزل منه بسرعة هائلة فأدركت أنه غريب عن المكان أوصله فضوله إلى حافة المنحدر ففقد توازنه ونزل بتلك السرعة إلى أسفله ... لم أشعر بنفسي إلا وأنا جالس معه أكلمه ويكلمني... تحدثنا كثيرا حتى أدركت داخل نفسي بأنه يملك نفس أفكاري...

مرت الأيام وجاء ذلك اليوم الذي وقفت فيه صارخا بأعلى صوتي في وجه الظلم الذي كان يسود قبيلتي، ثائرا لوحدي أمام المئات من السكان ومطالبا بحياة أفضل وأرحم مما كنا نعيشه... ولأن من تربى على العبودية لا يعرف للحرية طعم فلقد تلقيت ضربة حجر أو ما شابه على مؤخرة رأسي من طرف أحدهم... ضربة كانت كفيلة بأن تفقدني وعيي وأنا أطالب بالحياة لتعيده لي وأنا محكوم علي بالإعدام

ليس المهم أن نصل إلى مرادنا بل المهم أن نبدأ بالمشي نحوه، حتى وإن لم نصل سنقول حاولنا... كانت هذه قناعتي ولهذا تقبلت خبر إعدامي بصدر رحب... هؤلاء الأطفال سيذكرونني دائما وسيحكون قصتي لأبنائهم وأحفادهم هذا ما جاء في بالي لحظة سماعي حكم إعدامي

في يوم إعدامي وقفت شامخا على المنصة أستمع إلى هرطقة عجوز أحمق يسير قبيلة كاملة وفق ما يسميه بهذا ما تعارف عليه آبائنا» وأمامه جموع غفيرة من السكان فاتحين أفواههم ويهزون رؤوسهم موافقة على كلامه، كنت أتقزز من كل هذا حتى أني رجوت من الوقت أن يمر بسرعة لتأخذني الموت بعيدا عن هذه القذارة... حبل المشنقة المتدلي أمامي كان يبدو ألطف من أفكارهم... وبينما أنا أنتظر

الموت حتى ظهر أمامي ما لم يتوقعه أحد، مئات من الشباب يحملون في أياديهم مناجل وعصي وأي شيء يسبب الألم ويهرولون ناحية السكان والمنصة التي سأعدم عليها ولأن قبيلتنا لا تملك رجال شرطة فلم يقاوم السكان واستسلموا دون مقاومة وكذلك فعل مجلس القبيلة... قامت عجوز نكن لها الاحترام تدعى «سيفا» بفك وثاقي ثم خاطبت السكان قائلة «اليوم سيتغير كل شيء»...

وفعلا تغير كل شيء... صار أولادنا يرتادون المدارس في مدينة «إبتادور» بعد أن سهل لهم المهمة عمدتها الجديد المدعو السيد «آرثر ويليامز» وصار مرضانا يعالجون في المستشفى جنبا إلى جنب مع سكان المدينة، كما قام مجلس البلدية ببناء مذبح ومسلخ للحيوانات يعمل فيه الآن أكثرية الشباب أما ذلك المنحدر فلقد تحول إلى درج جميل

أنا الآن متزوج بفتاة تسمى «آنيا»... ابنة عم ذلك الشاب الذي جاء إلى قبيلتي... فتاة جميلة مثقفة ويتيمة، قتل والدها من طرف قطاع الطرق ثم ماتت والدتها مؤخرا بعد أن عانت كثيرا من المرض لتكتشف بعد وفاتها بأنهما ليسا والديها الحقيقيين، وإنما استبدلت مع فتاة ولدت ميتة وأن والدها الحقيقي رجل يسمى «ماثيو» وهو يعيش الآن معنا

تعرفت على «آنيا» في حفل زفاف السيد «إدوارد» وتوطدت معرفتنا لتنتهي بالزواج وها هي اليوم تعمل مدرسة في إحدى المدارس أما أنا فتطوعت للعمل في دار للأيتام... لقد كان اليوم الذي وقفت فيه في منصة الإعدام منعرجا في حياتي فبالرغم من أنني نجوت من حبل المشنقة إلا أنني تركت نفسي هناك، لقد ماتت نفسي ذلك اليوم وكل يوم أعيشه بعده هو يوم إضافي لا غير، ما أعيشه الآن يعتبر فرصة ثانية لهذا قررت أن أستغلها في شيء جيد ولم أجد أفضل من رعاية أطفال يتامى حتى يشتد عودهم ويقوون على مجابهة الحياة.

أما «إدوارد»... ذلك الشاب الذكي الذي قدم أفكارا رائعة ومشاريع تنموية نهضت بمدينة «إبتادور» وساهم بشكل فعلي في دمج قبيلتي مع سكان المدينة صار اليوم مستشارا للعمدة في مدينته الأصلية «فوانيمور» وبدأ فعلا بالنهوض بها من جديد... ساهمت أفكاره بشكل كبير في انخفاض الأسعار ونقص البطالة بعد أن قام ببناء مصنع كبير للأحذية ومستودعين لتجفيف الفواكه وقام بإزالة كل المكاتب التي تمد القروض مع الرهن وترك هذه العملية للبنك وحده

يعيش «إدوارد» في بيت عمه «كارتر» بعد أن أعطته له زوجتي «آنيا»، انتقل إليه بعد أن تزوج من فتاة في غاية الجمال والرقة من مدينة «إبتادور» أنجبت له طفلة سماها «سيفا»، تيمنا بالعجوز «سيفا» التي أنقذت زوجته من الموت بعد أن أصابها ورم خطير كاد أن يودي بحياتها... تسمى زوجته «سوزان» وهي ابنة عمدة «إبتادور» السيد «آرثر ويليام»

تمت بحمد الله.